أَهْدَافُ الرَّحَّالَةِ الأُورِبِيِينَ وَتَوجُّهَاتُهُمْ إِلَى الْعِرَاقِ

د. حيدر جاسم الرويعي
كلية التربية/جامعة القادسية

للرحلات أهميتها في الدراسات التاريخية، والتي توضحت في معلومات مضافة عن مراحل تاريخية، قلّ تناولها في مصادر وحوليات معاصرة ولاحقة، وبالرغم من هذه السمة، إلا إنّه من الواجب على الباحث في هذا المجال، أن يهتم بدراسة الرحالة وخلفياتهم وثقافاتهم، ومن جانب آخر أهداف الرحلة ونتائجها، لما لهذه الجوانب من أهمية في الخروج بتحليلات واستنتاجات، تقترب بأكبر قدر ممكن من الدقة المبتغاة، في الحكم على الحدث التاريخي من جوانب عدة، وهذه الدراسة الموجزة، لم تبتغ إحصاء عدد رحلات الأوربيين إلى العراق، لضيق المساحة المتوفرة لضرورات النشر في إصدار أكاديمي من جهة، ولصعوبة الإلمام بكافة الرحلات إلى العراق عبر الحقب التاريخية المختلفة، التي تحتاج إلى أكثر من مجلد، بل تهدف إلى تحديد إطار واضح المعالم لتصنيف هذه الرحلات، فاعتمد التصنيف على أسس وعوامل معينة، أخذت بنظر الاعتبار الأسبقية الزمنية والفعالية في التأثير على المجتمع العراقي.

تميزت الرحلات بأهمية واضحة من حيث القيمة التاريخية، بوصفه تسجيلا حيا للمرتحل عما رآه وما سمعه، فهو أشبه بالوثيقة التاريخية، إذا ما تمّ التعامل معه على وفق الاعتبارات الأكاديمية، وقد تطور هذا الضرب من التأليف على مدى قرون، وشارك في تطويره على حدٍّ سواء، الشرقيون– المسلمون منهم خاصة- والغربيون، وأسهم الرحالة الأوربيون بإيجابية في تقديم معلومات لم تكن متوافرة من قبل، عن الشعوب الأخرى في آسيا وأفريقيا، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ودينيا وغيرها، وبغضّ النظر عن تعدد دوافع الرحالة، والتي سنتناولها في هذه الدراسة، إلا أنه من المؤكد بأنها تصور إلى حد كبير، جزءاً مهماً من ملامح وحضارة وثقافة العصر الذي عاشوا فيه، كما أدت الرحلات دورها في الكشف الجغرافي، فقد رافق ذلك الاتصال بين الشعوب والتعرف على اللغات والعادات والتقاليد، واحدث بعضٌ منها كشفا مهما أو نتج عنها دفعة نحو تغيير نظرة الإنسان لذاته ولغيره، كما فتحت آفاقاً غير محدودة في مسار الحياة والتاريخ الإنساني برمته[1]، وفي الوقت ذاته، انقاد هذا النوع من التدوين بصورة جدلية لطبيعة العلاقات السياسية بين الثقافات المختلفة، كما اتبع الرحالة توجهاتهم الإيديولوجية والدينية التي حددت دورهم ومهامهم، فهو في كل الأحوال، لا ينفصل عن التراكمات القائمة، على الطابع العام الذي امتازت به العلاقات بين الشرق والغرب على مدى قرون خلت، ومن هذا المنطلق، قسمت الدراسة على ستة محاور فكان العامل الديني في مقدمتها، لما نتج عنه من تقسيم مذهبي بالأساس وفكري بدرجة اقل، وتلاه العامل السياسي، ومعروفة نتائجه في مرحلة الصراع الاستعماري بين الدول الأوربية، وقد ارتبط به بصورة واضحة عامل التنقيبات الاثارية، الذي خضع هو الآخر بدرجة كبيرة لعامل الصراع في المرحلة الكولينيالية، أما العوامل اللاحقة، التي تمثلت بالبعثات العلمية والتجارية، فلم ترتق إلى المستوى المطلوب من اهتمامات هذه الدول، ويأتي العامل الأخير، والمتمثل بالسياحة والمغامرة، في نهاية التصنيف، لاقتصاره على فئة قليلة من الرحالة، مقارنة بإعداد من قادتهم العوامل الأخرى للقيام بالرحلات، وكذلك ارتباطه بالحالة المادية التي توافرت لقلة قليلة من هواة السياحة والمغامرة، وطلبا للدقة، فقد اعتمدت الدراسة على مصادر متنوعة، تركز أكثرها بنتاجات الرحالة المنشورة، سواء كان بلغاتها الأصلية أو المترجمة إلى لغات أخرى- فضلا عن الدراسات الحديثة التي تناولت الرحلات مضمونا لها- وبأقلام هؤلاء الرحالة تكونت صور وأفكار عن الشرق بأقلام أوربية، تكونت صور وأفكار عن الشرق بأقلام أوربية، حددت بفاعلية طبيعة العلاقة مع الشرق، فمن مرحلة

الاستكشاف التي شملت عهود الإغريق والرومان، إلى مرحلة العصر الوسيط والاعتراف بالمسيحية دينا رسميا في أوربا، والذي أدى إلى انكفاء العلوم الكلاسيكية، والاهتمام بالكشف العلمي من أجل إخضاعه للدين، والحروب الصليبية، إلى مرحلة التنافس الاستعماري، وقد تناولناها في دراسة سابقة[٢].

وقبل الحديث عن توجهات وأهداف الرحالة الأوربيين إلى العراق، نشير هنا إلى تقسيم أ. د. علي شاكر علي، للمراحل التي مرت بها الرحلات إلى العراق والذي تناول فيه مدينة الموصل تحديدا، ولكون العراق جزءا فاعلا من الشرق الأدنى، أما بوصفه قبلة للرحالة على اختلاف جنسياتهم وأهدافهم، وأما بوصفه ممرا استراتيجيا - والموصل على وجه الخصوص- يربط بين الشرق والغرب، وبذلك فمن غير الممكن الفصل بين الرحلات التي مرت بالموصل والعراق، عن الرحلات التي مرت بالشرق على مرّ العصور، فالمرحلة الأولى والتي اسماها فترة الرحالة الكبار، تمتد من العصور الوسطى وحتى افتتاح قناة السويس ١٨٦٩م، وقد ذكرنا سابقا أنّ هناك رحلات تعود إلى فترات سبقت العصور الوسطى، وقد أطلقنا عليها مرحلة الاستكشاف المبكر، لرحالة كان لهم الأثر المهم ليس في أدب الرحلات والعلوم الجغرافية والوصفية فحسب، وإنما حتى على الدراسات التاريخية، وليس منطقيا أن نتجاوز عن رحلات هؤلاء ونتاجاتهم لنبدأ التقسيم من العصر الوسيط، وهم قد سبقوه بقرون عدة، ومع احترامنا لهذا الرأي، فإنّ التقسيم على هذا الأساس يفتقر للدقة، لأنّ لكل مرحلة أسبابها وأهدافها الخاصة، فالأولى كانت لها أسباب عديدة أهمها الاستكشاف والمعرفة، وبعضها كان يرافق الحملات العسكرية، وهي بهذا تختلف عن المرحلة اللاحقة مرحلة (الرحلات الدينية)، التي كان الوازع الديني سببا لها - وان لم تنقطع خلالها الرحلات المرافقة للحملات العسكرية، وتضاءلت إن لم نقل انعدمت خلالها الرحلات المعرفية - سواء كان ذلك لنشر الديانة المسيحية أو لأسباب سياسية، تتعلق بإنشاء تحالفات ضدّ المسلمين، وهذه بدورها تختلف عن المرحلة التي تليها، أما المرحلة الثانية بحسب تقسيم د. علي شاكر، فأشار إلى أنها تبدأ قبل انتهاء الأولى، وسماها فترة البعثات الآثارية، وحدد وجهة هذه الرحلات إلى الموصل[٣]، وقد دمج فيها بين دورين معا، اختلفا في الكثير من السمات، أهمها أن الشرق في مرحلة الرحلات الدينية، قد مثل العدو والمنافس، ونظر الأوربيون إليه نظرة الندّ القوي، ورحلات وسفارات رهبانهم تركزت في محاولات إضعافه، ومن ثمّ النفاذ فيه، أما المرحلة اللاحقة، والتي أشرنا لها بمرحلة ازدياد الأهمية الإستراتيجية والتنافس الأوربي الواسع، فقد شملت ظهور مفاهيم حديثة سياسية وعلمية متداخلة، وتحول فيها الشرق إلى كيانات هشة متصارعة، تركزت اهتمامات الأوربيين في التنافس على اقتسامها وتحقيق اكبر المكاسب منها، ولم تكن الرحلات والبعثات الأوربية لتهتم بالجانب الآثاري منفردا، أو أن تكون الآثار موضع اهتمامها الأكبر، لكي نطلق هذه الصفة على رحلات هذه المرحلة، وتتناسى الصراع الاستراتيجي بين القوى الكبرى في كافة المجالات، من جهة أخرى فان الدقة تقتضي التأكيد أن مرحلة "كبار الرحالة" التي أشار إليها د. علي، لم تنتهي في سنة ١٨٦٩م، وإنما استمرت حتى نهاية القرن التاسع عشر، وان عمل المبشرين الذين اختصوا بالرحلات الدينية على سبيل المثال، استمر في العراق حتى سنة ١٩٧٤م، وان انتهى عهد الرحلات بمفهومها القديم المتعارف عليه، إذ صدر في هذه السنة قرارا بمنع إنشاء وعمل المؤسسات الدينية الأجنبية في العراق، فقل بذلك قدوم المبشرين وتحددت نشاطاتهم في هذا المجال[٤].

تعددت أهداف الرحالة وتنوعت توجهاتهم، وسنتناول هذه الأهداف بدءا بأكثرها أهمية وتأثيرا على المجتمع العراقي:

١- العامل الديني - التبشير- :

يعد التبشير من أهم العوامل الدافعة لقيام الرحلات، ولاسيما إلى المناطق النائية والبعيدة عن أوربا، في أسيا وأفريقيا والأميركيتين، لان التبشير ركن أساس من أركان الديانة المسيحية، والتي تعتمد على قيامة المسيح وتوجيهه أتباعه الأحد عشر[٥] بالتبشير:" نلت كل سلطان في السماء والأرض،

فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم، وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس، وعلموهم أن يعملوا بكل ما أوصيتكم به، وها أنا معكم طول الأيام إلى انقضاء الدهر"(٦)، متزودين بإمكانيات إعجازية كإحياء الموتى وشفاء المرضى(٧)، وأرسل - كما أشار الإنجيل – رسله السبعين اثنين اثنين - وذلك بالرغم من الإشارات العديدة، الواردة في الأناجيل أيضا، إلى خصوصية الرسالة على بني إسرائيل حصرا (٨)- فأضحت المنطقة وجهة للعديد من المبشرين، وانتشرت المسيحية في بلاد ما بين النهرين، بحسب التقليد الذي سارت عليه المصادر الكنسية منذ القرن الأول للميلاد(٩)، وتشير المصادر الكنسية التقليدية، إلى أن توما الرسول، ثم أدي وتلميذاه اجاي وماري، هم أول من بشر بالمسيحية وخصوصا أدي - احد تلاميذ المسيح السبعين – الذي انحدر إلى مملكة حدياب الآرامية، والذي بشر في اربيل وباجرمي ونينوى، ومنها انتشر المسيحيون إلى الموصل(١٠)، وبعدها حدثت الانشقاقات كما هو معروف، وظهرت الحاجة إلى كسب المنشقين واستعادتهم إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية، في بادئ الأمر بتوجيه من كنيسة روما، ومن ثم تبعتها الكنائس الأخرى الأرثوذكسية والبروتستانتية، وقبل ذلك حدث التحول في السياسة البابوية، بعد البرود الذي ساد أوربا المسيحية في الاستجابة للحروب الصليبية، التي كانت تشنها البابوية ضد أعدائها(١١).

من هذا المنطلق، ظهرت العديد من المشاريع منذ القرن الثالث عشر، ابتدأها الراهب الدومنيكي وليم الطرابلسي *William of Tripoli*، بدعوته إلى الاحتفاظ بالأراضي المقدسة بطرائق غير مألوفة للغرب، فالحرب الصليبية فقدت قدسيتها في أوربا، ودعا – مدعوما بآراء معاصريه من منظري البابوية، كالفيلسوف الانكليزي المعاصر روجر باكون *R. Bacon*(١٢١٤-١٢٩٢م) - للقيام بعملية تبشير واسعة في جهات المشرق، وتطلب الأمر تعلم اللغات الأجنبية وخاصة العربية من اجل الغايات التبشيرية، ووضعت موضع التنفيذ على يد مجموعة من الرهبان، الذين طوروا هذه المشاريع، وتوجه معظمهم نحو الشرق لتحقيق هذه الغاية، منهم على سبيل المثال لا للحصر ريموند لول *Ramon Lull* (١٢٣٥-١٣١٥م)(١٢)، ومارينو سانودو *Marino Sanodo* وفيليب دي ميزيير *Philip de Mitzier*(١٣)، فانتشر الرهبان في شتى أنحاء العالم، وكان أول مبشر وصل إلى بلاد مابين النهرين هو غليوم دي مونيفيرا *G. De montferat*، الذي دخل في علاقات مع الرئاسة النسطورية ومر بالموصل وبغداد(١٤)، إلا أن التحول المهم في طبيعة مهمات المؤسسات التبشيرية، جاء بعد أن منح البابا انوسنت الرابع *Innocent IV* (١١٩٥-١٢٥٤م)، امتيازات واسعة للمبشرين في الشرق سنة ١٢٤٤م، إذ وجهت الجهود لكسب الطوائف المسيحية الشرقية، لتحقيق مكاسب سياسية وعسكرية متمثلة بإقامة تحالف مسيحي - مغولي لتطويق العالم الإسلامي(١٥)، مستغلين تأثير توراكنة خاتون والدة كيوك خان المغول التي تدين بالمسيحية، وبالتالي تحطيمه ومن ثم اقتسامه، والخطة النهائية، تتمثل في كسب هؤلاء الوثنيين إلى المسيحية الكاثوليكية، وبالتالي سيطرة البابوية على الجميع(١٦)، ومن الرحلات المهمة في هذا المجال، رحلة الراهب ريكولدو دي مونت كروتشي *R. De mont Crucce* (١٢٤٢- ١٣٢٠م)، والتي زار بها العراق سنة ١٢٨٥م، كرئيس لمجموعة من الرهبان من جمعية *Peregrinates* (الجوالة أو المرتحلون)، وتجول خلالها في بلاد الرافدين(١٧)، وكتب تقريره عن هذه الرحلة في كتاب، نشر في روما سنة ١٩٤٨م تحت عنوان:"الرحلة إلى أنحاء المشرق للأخ ريكولدو دا مونتي كروتشي"، وقد وردت فيه العديد من الملاحظات والمعلومات، التي تؤكد اطلاع المؤلف على عادات السكان وتقاليدهم، ويتأتى ذلك من سكناه بينهم، وقدم وصفا لمعظم المدن التي مر بها، فقال عن الموصل:" جئنا إلى نينوى المدينة الكبيرة، وقد كانت كبيرة بالطول لا بالعرض، لأنها تقع على طول نهر دجلة، نهر الفردوس ...وهي ألان مبنية جهة النهر الأخرى، ويقال لها الموصل"(١٨)، وألقى ريكولدو عدة مواعظ في الساحة الكبيرة في نينوى، ودخل في نقاش مع اليهود في مجمعهم بالموصل، وكذلك مع الأرثوذكس في دير مار متي، وسافر إلى بغداد عبر نهر دجلة (بالكلك):" وسرنا مسافة ٢٠٠ميل حتى وصلنا بغداد (*Baldacum*)"، وفيها تمكن من إلقاء المواعظ في الكنائس النسطورية، وكان الإقبال على سماعه

كبيرا، إلى أن نادى ذات يوم بمريم العذراء (ع) "أم" الله تعالى، فاغتاظوا منه وأخرجوه من الهيكل، وقاموا بتطهيره وغسله بماء الورد، وقد جرت بينه وبين اللاهوتيين المحليين مناظرة علنية[١٩]، ويصف حبي أسلوب ريكولدو بالكتابة، بأنه نثر سلس يمتاز ببساطة وبلاغة، ويوضح الوقائع بشكل تام، من خلال الدراسات الإستشراقية التي قام بها في أوربا[٢٠]، إلا انه لم يذكر بان ريكولدو كان يتردد إلى الجامعة المستنصرية بانتظام، لدراسة القران الكريم وترجمته، وبعد عودته ظهرت ابرز دراساته الإستشراقية التي قصدها د. حبي في "نقده الشهير للقران"[٢١]، وعلى العموم فان أهمية هؤلاء المبشرين، لا تقتصر على ما تركوه من كتابات وصفية و إستشراقية، بل تظهر من خلال الأثر الحاصل على ارض الواقع، بتحويل معظم الطوائف المسيحية الشرقية، إلى إتباع كنيسة روما الكاثوليكية، التي بذلت جهودا جبارة، وقدمت تنازلات واضحة، وصلت إلى حد تحوير القداسات وإدخال التعديلات بما لا يخل بمقررات مجمع خليقدونية[٢٢]، لكي يتلاءم مع المزاج السرياني والنسطوري وباللهجات الأصلية نفسها، وهو الانشقاق الذي ولد العداء بين هذه الطوائف، ولم يقتصر الأمر على المسيحيين فقط، بل انتقل إلى علاقة هؤلاء بالأغلبية المسلمة، إذ بدأت تظهر الصراعات بين الطرفين، بعد أن كانوا يعيشون في وضع مستقر وامن، حتى وصل الأمر في إحدى المرات إلى أن يتدخل الأهالي لوقف التجاوزات، التي كانت تصدر عن المبشرين، لعجز السلطات العثمانية عن ردعهم بسبب الحماية الأجنبية لهؤلاء، وخوفا من غضب الدول الأوربية[٢٣].

من الأمثلة الأخرى، ما كتبه الأب دومنيكو لانزا *D. Lanza* في مذكراته المعروفة في الأوساط التاريخية، والتي لم تنشر في ايطاليا، وإنما ترجم شيء بسيط منها إلى العربية، ونشرت في العراق بعنوان: "الموصل في الجيل الثامن عشر حسب مذكرات دومنيكو لانزا"، وهي ترجمة عن الايطالية لبعض كتابات لانزا، استنادا على كتابه الثاني: "ملخص تاريخ رحلات الأب دومنيكو لانزا"، وقد ضاعت المخطوطة الأصلية، ووجدت بالصدفة عند احد القصابين يغلف بها مبيعاته[٢٤]، إن أهمية وقيمة كتاب لانزا، تتضح في أنها تقدم صورة واضحة عن مدينة الموصل وما جاورها، إبان القرن الثامن عشر، والذي شهدت فيه أحداثا جسام، فقدم معلومات مهمة عن الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية والجغرافية، قلما نجدها في مصدر أخر[٢٥]، وقد استحصل لانزا فرمان سلطاني من السلطات العثمانية سنة ١٧٥٦م، بتبعية الإرسالية الدومنيكية في الموصل للسفارة البريطانية، ولعله أول أوربي أشار إلى وجود النفط بجوار الموصل، وتحدث أيضا عن المجاعة المروعة التي أصابت المدينة، في السنوات ١٧٥٦-١٧٥٧م بسبب البرد القارص: "إذ جمد نهر دجلة مدة عشرين يوما وبسبب هجوم الجراد وتفشي وباء الطاعون الخبيث كذلك"[٢٦]، والطريف أن لانزا، أشار إلى وجهة نظر مخالفة لما كتبه المؤرخون الموصليون المعروفون، في تفسير نجاح الموصليين في الدفاع عن مدينتهم ضد حصار نادر شاه (١٧٣٦-١٧٤٧م) سنة ١٧٤٣م، والذي عزاه هؤلاء إلى ما كانت تضمه المدينة من مراقد الأنبياء والأولياء، فقال: "إن هذا الظفر المدهش نسب إلى أعجوبة باهرة من العذراء مريم البتول، فبنيت كنيستها وجعل لها وقف من أربعة أطرافها (٤٠) مترا عرضا حولها ..."[٢٧]، والحقيقة أن هؤلاء المبشرين حالهم حال الرحالة الآخرين يتناولون الأحداث من وجهة نظرهم الشخصية، إذ تظهر فيها معتقداتهم الدينية والمذهبية بوضوح، وهو من المآخذ التي شخصت على هذا النوع من التدوين، إلا أن هذا لا يمنع من أن نقر بأهمية هذه الكتابات، وهذه الملاحظات بكل الأحوال، لا تقلل من قيمة أعمالهم وأهميتها بالنسبة لدارسي التاريخ .

هذه نماذج من كتابات الرهبان الكاثوليك، أما بالنسبة للمبشرين البروتستانت، فقد كان اختيارهم للعراق لسببين، الأول وتمثل بتحويل نساطرة العراق إلى البروتستانتية، استكمالا لمشروع اكبر يقضي بتحويل نساطرة فارس أساسا[٢٨]، كذلك التبشير بين باقي الطوائف في العراق كالصابئة واليزيدية، والثاني جعله منطلقا للتوجه نحو الخليج والجزيرة العربية، فتحولت مدنه مقصدا للقساوسة المرتحلين، وكانت البصرة القاعدة لعملياتهم التبشيرية، لموقعها الاستراتيجي، وكونها الميناء الأكبر والاهم في شرق

الجزيرة العربية، إذ أن النشاط التبشيري البروتستانتي الأمريكي على سبيل المثال، كان ينطلق من الإرسالية التبشيرية الأمريكية في غرب بلاد فارس، وتفتح لها محطات في مختلف المناطق المجاورة(٢٩)، ومن الأمثلة على كتابات رحالة هذه الهيئات نذكر على سبيل المثال الراهب ا. ن. كروفز *A. N. Groves* من بلايموت، الذي رحل إلى تبريز من روسيا والقفقاس، ثم قصد منها إلى السليمانية عن طريق (بانه) فوصل في تشرين الثاني سنة ١٨٢٩م، وتركها إلى كفري، وقد قامت زوجته بتأليف كتاب بعنوان: "مذكرات المرحوم أنتوني نورس كروفز" والذي نشر في لندن بطبعته الثانية سنة١٨٥٧م(٣٠)، ومن الانجليكان كانت هناك رحلة الأب بيرسي بادجر *B. Badger* التي نشرها في كتاب بمجلدين، تضمن الأول وصف المناطق التي زارها، والثاني تركز حول كنيسة المشرق وأوضاعها، وقد كان لهذا المبشر نشاط مهم في مدينة الموصل بدعم من القنصل البريطاني، ودخل في صراع مع المبشرين الكاثوليك المدعومين من فرنسا(٣١)، ولا ننسى في هذا المجال أن نذكر الأب صموئيل زويمر *S. Zwemer* الذي اشتهر بالتعصب وضيق الأفق، إلا انه أصبح رئيسا للمبشرين في منطقة الشرق الأدنى، وتولى بعدها رئاسة مجلس *The Moslem World*، وله العديد من المؤلفات في العلاقة بين المسيحية والإسلام، كما قامت زوجته بالتبشير بين النساء المسلمات، في البصرة والبحرين والقطيف ابتداء من سنة ١٨٩٦م(٣٢)، وقد اضطر هذا المبشر السلطات البريطانية في العراق، إلى أن تخرجه من البلاد وتنهي نشاطاته، بعد أن أثار المسلمين واستفزهم بسلوكه المتهور وتعصبه الأعمى(٣٣)، وهناك ايضا المبشر جون فان ايس *J. V. Ess*.، الذي قدم إلى البصرة سنة ١٩٠٣م، وجاب المدن القريبة منها لاتقان اللغة العربية والاطلاع على عادات وتقاليد العرب وتفهم عقليتهم، وقد اصدر كتابا عن ذكرياته في المنطقة، تناول فيه وجهة نظره عن المنطقة وسكانها، والجهود التي بذلها من اجل تسهيل عمل الإرسالية التبشيرية، التي تركز نشاطها في تقديم الخدمات الطبية والتعليمية(٣٤).

٢- العامل السياسي:

تعود العلاقات السياسية لبغداد مع الدول الأوربية إلى العهد العباسي، عندما كانت حاضرة العالم الإسلامي، وبسقوطها بيد المغول سنة ١٢٥٨م، فقدت مكانتها السياسية والحضارية، وتوالت عليها سيطرة مختلف الأقوام من أواسط آسيا وبلاد فارس، وفي العهد العثماني، ارتبطت هذه العلاقات ارتباطا وثيقا بالباب العالي، وصراع القوى الكبرى على النفوذ فيها وفي ولاياتها، وقد تنافست تلك القوى فيما بينها مستغلة الأوضاع المتردية فيها، وكذلك تطور نظام الامتيازات الأجنبية*Capitulation*(٣٥)، الذي وضع البذرة الأولى لتصدع كيان الدولة العثمانية، خاصة بعد الضعف الذي اعتراها، مما اضطرها للرضوخ لمطالب الدول الأوربية، وتنفيذ بنود الاتفاقيات لتشمل دولا أخرى أسوة بالدول صاحبة الامتيازات الأقدم(٣٦)، ولابد لنا من القول إن للعثمانيين أيضا كتاباتهم عن العراق، وبالإمكان أن نتطرق إلى رحلة في القرن السابع عشر، وتحديدا سنة ١٦٣٨م، إذ رافق السلطان مراد الرابع احد الأشخاص (ربما كان موظفا في الديوان السلطاني)، والذي كتب أشبه ما تكون بيوميات لرحلة السلطان، منذ خروجه من العاصمة العثمانية في ٨ آذار ١٦٣٨م، حتى وصوله إلى بغداد في ١٥ تشرين الثاني ١٦٣٨م، ومن جملة ما ورد فيها وصف للمدن، وخصوصا الموصل وتوابعها، والتي ذكر فيها أن السلطان استقبل سفير الهند، الذي حضر لعرض مسألة الاعتداءات الفارسية على قندهار، وقد أمره السلطان بالبقاء في المدينة ريثما يتفرغ من مهمته العسكرية(٣٧).

ومنذ مطلع القرن التاسع عشر، أخذت الدول الأوربية تنظر إلى منطقة الخليج العربي على أنها منطقة ذات أهمية إستراتيجية، تحقق عددا من الأهداف والمطامع، وكان العراق جزءا مهما من هذه المنطقة، والذي تكالبت عليه الدول الأوربية ومن بينها فرنسا، التي أخذت تنافس بريطانيا صاحبة النفوذ الأقدم والأكثر على قدرة التأثير فيه، والتي حاولت ومنذ زمن بعيد أن تمد نفوذها أليه، بسبب موقعه الجغرافي المهم، ودوره التجاري بوصفه مستودعا للبضائع المستوردة، التي توزع منه إلى المناطق المجاورة كالأناضول وفارس والجزيرة العربية(٣٨)، وباعتباره مركزا مهما لطرق المواصلات البرية

والنهرية بين أوربا والهند، إذ تأتي البضائع من الهند إلى البصرة، ومن ثم إلى بغداد ومنها إلى حلب لتجد طريقها إلى أوربا(٣٩)، لذلك سعت إلى إيجاد موطئ قدم لها في العراق، واستخدمت من اجل ذلك شتى الوسائل ومنها الاعتماد على الإرساليات التبشيرية، ولاسيما الكرملية(٤٠)، التي تولى احد عشر من رهبانها منصب قنصل فرنسا في البصرة منذ سنة ١٦٧٤م، وخلال فترة السلم التي أعقبت حرب السنوات السبع ١٧٥٦-١٧٦٣م، حاول الفرنسيون تجديد نشاطهم في الخليج العربي، وقاموا بإرسال مندوب إلى كريم خان ألزندي سنة ١٧٦٦م، للتفاوض معه من اجل التنازل عن جزيرة خرج، ولكن لم يتحقق شيء من هذه المحاولة، وحينما نشبت الحرب بين فرنسا وبريطانيا سنة ١٧٩٣م، تزايدت رغبة فرنسا في توسيع مناطق نفوذها، ووجهت إلى الخليج اهتماما خاصا(٤١)، ومهما يكن من أمر، فان الوجود الفرنسي في بغداد تمثل في نهاية القرن الثامن عشر، باستمرار وجود القنصلية الفرنسية والإرساليات التبشيرية للكرمليين والدومنيكان، ومحاولات تعزيز ذلك الوجود، ومع ذلك فان النشاط الفرنسي ظل ضعيفا في هذه الفترة، على الرغم من أن عدداً من الفرنسيين الذين تظاهروا بالسياحة وهم في طريقهم إلى فارس، غير أن أهدافهم الحقيقية في الواقع كانت تتمثل في جمع المعلومات السياسية والعسكرية عن العراق(٤٢)، وتعتبر البعثة الفرنسية، للعالمين الطبيعيين أوليفيه *Olivier* وبروجيه *Burguiere* إلى الدولة العثمانية، ومصر وفارس، خلال السنوات الأولى من عمر الجمهورية، فاتحة لحقبة من النشاط الفرنسي الجاد في الخليج العربي، فقد كلفت الحكومة الفرنسية اوليفيه بمهمة سياسية في ظرف حاسم من تاريخ العلاقات الفرنسية بالشرق(٤٣)، والظاهر أن اختيار عالمين إنما كان المقصود به تغطية أهداف البعثة الحقيقية، بإعطائها صورة "مهمة علمية"، وجاء في التعليمات التي أصدرتها الحكومة الفرنسية، أن يعمل المبعوثان على اجتذاب كل من الدولة العثمانية وفارس، إلى التحالف مع فرنسا ضد روسيا على أساس المصالح، لان روسيا آنذاك كانت الخصم التقليدي لهاتين الدولتين الإسلاميتين، وهي في الوقت ذاته عضو في التحالف الدولي الأول ضد الثورة الفرنسية، كما أن على البعثة العمل على إعادة إنعاش النفوذ الفرنسي في بلاد فارس، والسعي للحصول من الشاه على إذن بإنشاء تحصينات في بندر عباس، وتأمين المساعدة الفارسية لغزو أفغاني للهند في الشمال، وهو مشروع لم يدخل مرحلة التنفيذ العملي(٤٤)، وفي أوائل نيسان ١٧٩٦م وصل المبعوثان إلى بغداد، ومكثا فيها بحدود شهر ونصف، تمكنا خلالها من معالجة الوالي سليمان باشا الكبير من مرض كان يشكو منه(٤٥)، وقد كتب المبعوثان خلال رحلتهم هذه، تقريرا يوصيان فيه حكومتهما بأهمية التجارة في الخليج العربي، وأهمية ميناء البصرة بالنسبة لتجارة الهند، وبعض التوصيات والاقتراحات الأخرى التي تساعد على تثبيت تجارة فرنسا وتوسيع نفوذها في المنطقة(٤٦)، وفي مطلع القرن التاسع عشر، وبعد فشل الحملة الفرنسية على مصر في تحقيق أهدافها، اعتمدت الحكومة الفرنسية على الرحالة الفرنسي دوبريه *Dupre* كمبعوث لوالي بغداد سليمان باشا الصغير(١٨٠٨-١٨١٢م)، للحد من تنامي النفوذ البريطاني في المنطقة(٤٧)، والجاسوس الفرنسي تيودور لاسكاريس *Theodor Lascariss*، الذي جاب بصحبة الشاب الماروني فتح الله صايغ الحلبي، مدن وبوادي بلاد الشام حتى وصلا إلى الجزيرة العربية ما بين سنتي ١٨١٠-١٨١٥م، ليمهدا الطريق لوصول حملة عسكرية فرنسية، خطط لها جنرالات الجيش الفرنسي بعد عودتهم من حملة نابليون إلى مصر، وتهدف الحملة إلى احتلال شمال الجزيرة العربية وبلاد الشام وقطع طريق الإمداد عن الجيش الإنكليزي المرابط في الهند(٤٨)، إن الأمر غير المألوف في هذه الرحلة، هو قيام المرافق العربي للرحالة الفرنسي بكتابة الرحلة، بينما تفرغ لاسكاريس الذي أطلق على نفسه "الشيخ إبراهيم"، لكتابة التقارير الإستخبارية إلى باريس، وقد وجه الكثير من النقد لهذه الرحلة، بل إن البعض اعتبرها ملفقة كونها مليئة بالمبالغات، إلا أن الأدب الأوربي اهتم بها ورفع من مكانتها، واكسبها أهمية واضحة في هذا المجال عندما ترجمها الأديب الفرنسي لامارتين *Alphonse de Lamartine* (١٧٩٠-١٨٦٩م) وألحقها بكتابه "رحلة إلى الشرق"، بينما قام الكاتب الفرنسي جان سوبلان *Jean Soblan* بتأليف رواية عن الرحلة بعنوان "الاسكاريس العرب"(٤٩).

كانت أولى الرحلات التي قام بها الانكليز لأسباب سياسية إلى العراق، كجزء من استراتيجية عامة، قائمة على صيانة النفوذ البريطاني في المنطقة ضد التهديدات الفرنسية والروسية(٥٠)، في بداية القرن التاسع عشر والتي قام بها الكابتن جون ماكدونالد كينير *J. M. Kinnier* في سنة١٨١٣-١٨١٤م، ونشر وقائعها في كتاب أصدره في لندن سنة ١٨١٨م، وقد شملت رحلته تلك مناطق عديدة من الأناضول، وكردستان، وغرب بلاد فارس، والموصل وبغداد، وكان الدافع لتلك الرحلة جمع اكبر قدر ممكن من المعلومات عن تلك المناطق، في إطار مساعي الانكليز لمواجهة ما سمي بـ" تهديد الهند "(٥١)من جانب روسيا القيصرية، التي تعززت رغبتها في الوصول إلى المياه الدافئة - بخاصة الخليج العربي - في ذلك الوقت، وهي رغبة طبيعية نظرا لظروف روسيا من جهة، وللأهمية التي يتمتع بها الخليج العربي في سياسات الدول الكبرى من جهة أخرى، ومن ضمنها روسيا التي كان يتطلب وصولها إلى المياه الدافئة، تأمين منطقة نفوذ لها على الدردنيل أو على سواحل الخليج العربي(٥٢)، وبعد عودة كينير من تلك الرحلة إلى مدراس في الهند، (إذ كان قائدا لقلعة سان جورج فيها)، قدم المعلومات التي جمعها إلى إدارة شركة الهند الشرقية الانكليزية، التي كانت تتولى إدارة الممتلكات الاستعمارية البريطانية في الهند، كما قدم معها مذكرة خاصة بعنوان "أبحاث حول الهجوم على الهند" دعا فيه إلى إتباع سياسة فعالة في الشرق(٥٣)، تبعه برحلة أخرى الملازم ويليام هيود *W. Heude* وهو من مؤسسة مدراس العسكرية أيضا، جمع فيها المعلومات عن المناطق التي مر بها، مع تعليقات تمثل انطباعاته الشخصية حول الأماكن والأشخاص بحسب طريقة استقباله، وقد نشر رحلته هذه بكتاب حمل عنوان "رحلة بحرية إلى شمال الخليج (الفارسي) ورحلة في البلاد التي تليها من الهند حتى انكلترا سنة١٨١٧م"(٥٤)، في حين ذكر لونكريك ان عنوان الكتاب هو" رحلة في الخليج (الفارسي)"(٥٥). ومن الرحالة السياسيين الذين كتبوا عن العراق، المقيم لشركة الهند الشرقية البريطانية في بغداد كلوديوس جيمس ريج *C. J. Rich* (١٧٨٧-١٨٢١م) الذي يعد من أساطين السياسة الاستعمارية البريطانية في العراق، والذي ازداد في عهده (١٨٠٨-١٨٢١م) نفوذ المقيمية البريطانية في بغداد، ووصف الرحالة المعاصرين لفترة مقيميته بـ "اقوى رجل في بغداد"(٥٧) وقد دعا حكومته سنة١٨٢٠م إلى احتلال العراق لتأمين طريق الهند، أما رحلته فقد كانت بدعوة من محمود باشا بابان حاكم السليمانية، واستمرت سنة كاملة (نيسان ١٨٢٠-اذار١٨٢١م)(٥٨)، إذ غادر بغداد مع زوجته وحاشية ضخمة من الموظفين والخدم، وكانت رحلته حسبما يذكر ادموندز تحتوي على معلومات مهمة في مختلف المجالات الجغرافية والتاريخية والاثارية، وقد نشرت هذه الرحلة في كتاب أرملته تحت عنوان"قصة مقيم في كردستان" في لندن سنة ١٨٣٦م(٥٩)، وخلال الـ١٥ سنة التي تلت رحلة ريج إلى شمال العراق، قام عدد من السياسيين والعسكريين الانكليز بزيارة المناطق الكردية في بلاد فارس وشمال العراق، بعد ازدياد التنافس حول المنطقة بظهور محمد علي باشا(٦٠)، لاسيما السليمانية وأطرافها زاخو وعقره والزيبار واربيل، بهدف جمع المزيد من المعلومات عن المنطقة، مثل جيمس بيلي فريزر *B. Frazer* سنة ١٨٣٤م، الذي كتب رحلته لتقدم كمذكرة للحكومة البريطانية، والمقدم ج. شيل *G. Sheill* نائب رئيس البعثة البريطانية إلى إيران، ثم وزير خارجية بريطانيا المفوض في طهران سنة ١٨٣٦م، والرائد هـ. س. رولنسون *H. C. Rawlinson* سنة ١٨٣٦م(٦١)، وأيضا الميجر ايلي بانستر سون *I. B. Soan* (١٨٣١-١٩٢٣م)، الذي كلف بمهام جاسوسية عدة لصالح الانكليز في بلاد فارس والعراق، فأتقن الفارسية والكردية واسلم على المذهب الجعفري وتزوج في شيراز من ابنة احد مجتهديها، وبعدها تولى عدة مناصب سياسية كونه موظفا استعماريا كثير الدهاء حتى أصبح حاكما سياسيا على السليمانية، وشرع بتشجيع اللغة والثقافة الكردية واصدر صحيفة بهذه اللغة هي صحيفة (بيشكوتن-التقدم) أول صحيفة كوردية في المنطقة، والتي استقطبت عدداً من المثقفين الكرد، وخدمت المصالح والسياسات البريطانية، وبأشراف مباشر من (سون) نفسه(٦٢).

٣- التنقيبات الأثرية:

العراق بلد ذو قاعدة حضارية واسعة بين الأمم، وأرضه مليئة بآثار حضارية عظيمة، كونه موطن الحضارات السومرية والاكدية والبابلية والأشورية، كما كان بيئة مناسبة لازدهار الحضارتين الرومانية واليونانية، ومن ثم أصبح مركزا للحضارة العربية الإسلامية في العهد العباسي، وقد بقيت آثار هذه الحضارات العظيمة عهودا طويلة غير معروفة وبعيدة عن الأنظار، خصوصا أن العادات والتقاليد الاجتماعية المرتبطة بالعامل الديني، منعت السكان عن محاولة كشفها والتنقيب عنها(٦٣)، في ذات الوقت كانت هذه الحضارة بعيدة عن الأوربيين، إلا أن معلوماتهم عنها أخذت تزداد بقيام الرحالة الأجانب بالكتابة عنها، ودراسة تاريخها وآثارها الباقية، إذ وردت الإشارات عن بلاد ما بين النهرين في كتابات الرحالة الاسباني اليهودي بنيامين دي توديلا (التطيلي) *Benjamin de Toddlea*، الذي يعتبر من أوائل الذين زاروا الشرق والعراق، وقيل انه قدم إلى بغداد في عهد الخليفة المستنصر بالله، وقد وقف على أطلال مدينة نينوى الأثرية، غير أن الكثير مما رواه في رحلته، يعد نقلا غير دقيق لأنه اعتمد على ما كان يسمعه من أفواه الناس، حتى إن بعض المؤرخين ينفون أن يكون بنيامين قد قام برحلته تلك فعلا، وقد وضع رحلته بالعبرية وترجمت إلى معظم اللغات الأوربية، وترجمها عن العبرية إلى العربية عزرا حداد وطبعها ببغداد سنة١٩٤٥م(٦٤). ومن المختصين نذكر الرحالة الطبيب م. أوتر *M. Otter* الذي كتب رحلته ونشرها في باريس بعنوان "رحلة في تركيا وإيران"(٦٥)، وفي سنة ١٧٠٠م تجول الأب عمانوئيل دي سانت ألبرت *E. De S.t Albert* على ضفاف الفرات، ولان هذا الراهب كان عالما بالآثار، فقد تولد انطباع لدى البعض إن مهمته كانت اثارية بالدرجة الأساس، وقد تبين له من خلال البحث والتجوال، أن ما يشيع عند العامة عن المواقع الآثارية لا يمكن الاعتماد عليه، وقد قام بجمع الكثير من القطع المسمارية من منطقة الحيرة(٦٦)، وفي سنة ١٧٨٦م زار الموصل كل من الرحالة الفرنسي بوشامب *Beauchamp* والانكليزي ميكنان *Mignan* وفحصا أطلال مدينة نينوى، وقارناها بالمعلومات الواردة في التوراة، كما قام مارسل ديولافوا *M. Diolavua* (١٨٤٥-١٩٢١م) وهو من الرحالة المهتمين بالآثار بتولي الحفريات، وكتب العديد من المجلدات ودرس أسفار استير ودانيال والملوك في التوراة(٦٧).

إن الحديث عن التنقيبات الأثرية - رغم الطابع التجاري الغالب عليه – يقودنا بالضرورة إلى الحديث عن السياسة، فهي لم تجر بمعزل عن الصراع السياسي، الذي دار بين بريطانيا وفرنسا حول النفوذ في العراق، بل كان جزءا منه، فقد كان إخفاق القناصل الفرنسيين في تحقيق تقدم سياسي على بريطانيا في العراق، قد دفعهم إلى الدخول في منافسة شديدة مع قناصل بريطانيا في مجال التنقيب وتحقيق نتائج أهم، بعد أن فتح ريج *Rich* الباب أمام الآثاريين من خلال مجموعته الآثارية ودراساته، التي خرج بها من زياراته وتنقيباته للعديد من المناطق الآثارية، وجلبت انتباه الأوربيين إلى الآثار الآشورية، وزيادة الاهتمام بما سمي علم الأشوريات في القرن التاسع عشر(٦٨)، وقد أدى ذلك إلى افتتاح القنصلية الفرنسية في الموصل سنة ١٨٤٢م، وتم تعيين باول إميل بوتا *P. E. Botta* (١٨٠٢-١٨٧٠م) قنصلا فيها، وهذا كان مولعا بالآثار القديمة حبا بالشهرة، وبعد فشله في تحقيق أهدافه في تل النبي يونس وتل قوينجق(٦٩)، فانه حقق نجاحات مهمة في مجال التنقيب ولاسيما في خرسباد القديمة(٧٠)، والتي وجدت دعما ماليا من الحكومة وتوصيات باستمرار العمل، وإرسال المكتشف منها إلى متحف اللوفر، كما أرسلت الحكومة الفرنسية إلى الموصل عالم الآثار والرسام يوجين فلاندن *Eugene Flandin* (١٨٠٩-١٨٨٩م)، لتعزيز جهود القنصل بوتا في هذا المجال، وقد قدم فلاندن وصفا مصورا للآثار الأشورية في مذكراته عن رحلته إلى الموصل، مع وصف للمدينة وسكانها(٧١)، وحصلت على فرمان من السلطات العثمانية لمواصلة العمل(٧٢)، ونتيجة لعمله اصدر بوتا كتابا بالفرنسية هو "*Monument de Ninive*" بجزأين، الأول يحتوي معلومات مهمة عن المواقع الآثارية، مع رسوم وتصاميم وخرائط للأبنية والقطع الأثرية المكتشفة، والثاني ضم نماذج من الكتابات المسمارية، وتحول الكتاب إلى مرجع

مهم من المراجع التاريخية بالنسبة للمهتمين بالآثار والتاريخ[٧٣]، ومن ناحية أخرى، فقد وقف بوتا بوجه النشاط التنقيبي ألآثاري البريطاني، الأمر الذي أدى إلى اصطدام الطرفين بصورة مكشوفة وعلنية، إذ اخذ كل منهما بمراقبة الأخر، ووضع أمامه العراقيل باستخدام شتى الوسائل التي تعيق أعمال التنقيب، كما حصل عندما قام بوتا بإشاعة خبر قيام لايارد *Layard* بنبش قبور المسلمين، مما احدث ضجة ضد لايارد والتنقيب البريطاني[٧٤]، كذلك ما حصل عندما وجد لايارد قطعة ذهبية رقيقة تعود للعهد الأشوري، فأشاع بوتا ان لايارد قد عثر على كنز من ذهب لا يمكن أن تقدر قيمته، فاستدعته السلطات العثمانية وأخذت بمراقبته، وقد وصل الحد في الصراع بين الطرفين، في محاولة الحصول على إجازة للتنقيب في تلال قوينجق، باللجؤ إلى القضاء وحل النزاع ولو مؤقتا سنة ١٨٤٧م[٧٥]، وقد حاول كلا الطرفين استخدام نفوذه لدى الباب العالي، لتذليل الصعوبات والحصول على تسهيلات أكثر، كما فعل كل من السفير البريطاني ستراتفورد *Stratford*، وكذلك القنصل العام البريطاني في بغداد رولنسون *Rawlinson*[٧٦]، والحقيقة أن جميع المصاعب التي اعترضت عمل لايارد ومن جاء بعده، والإشاعات التي طاردته، كانت بتحريض ودعم مباشر من القنصل الفرنسي رويت *Rouet*، الذي كان هو الأخر مهتما بالتنقيبات الأثرية، حتى تطور الأمر فيما بعد بين لايارد وقاضي الموصل، إلى درجة أن قاضي الموصل قد اعد خطة لقتله لكن الخطة فشلت، وقد أثار هذا النشاط القنصلي الفرنسي، استياء القنصل البريطاني العام في بغداد رولنسون، والسفير البريطاني في الأستانة ستراتفورد كاننك *Stratford Canning* الذي كتب إلى لايارد في كانون الأول ١٨٤٥م:" ان تدخل الباشا غير مقبول وجاء في غير أوانه...، وانه- الباشا - يعرف إني استطيع أن أرسله إلى الشيطان، وأنا اعرف جيدا انه يستحق ذلك..."، ويبدو أن كاننك قد تدخل لدى الأستانة، لاتخاذ الإجراءات اللازمة لإيقاف والي الموصل عند حده[٧٧]. لقد كان الانكليز شديدي الاهتمام بهذا المجال، فنرى لايارد يكتب لمساعده الذي فكر بترك الموصل، بأنه إذا ما قرر الرحيل حقا عن الموصل، فيجب أن لا يوقف التنقيب وان يحل محله كريستيان رسام، الذي كان يشغل منصب نائب القنصل البريطاني في الموصل، وليس المهم إجراء حفريات مكثفة، بل المهم هو منع الفرنسيين من الاستحواذ على الموقع، ولأجل عرقلة التنقيبات الأثرية الانكليزية في قوينجق مثلا، قامت القنصلية الفرنسية في الموصل، بتوجيه تهمة السرقة، إلى بعض العاملين لحساب الانكليز من العمال العرب في مجال التنقيب الأثري[٧٨].

لقد استمرت فرنسا ببذل جهودها الواسعة في هذا المجال، ولاسيما بتعيين فيكتور بلاس *V. Palace* العالم الآثاري والمهندس المعماري، على رأس بعثة فرنسية جديدة للتنقيب في جنوب العراق، وقد وضع هؤلاء نصب أعينهم، إقامة علاقات طيبة مع العشائر العربية في جنوب العراق، وكسبهم لصالح النفوذ الفرنسي، يؤكد ذلك التقرير الذي كتبه احد أعضاء البعثة إلى الحكومة الفرنسية في ٣١ آذار ١٨٥٢م : "...أما بالنسبة لتل بير- نمرود المصنوع من الزجاج والواقع غربي الفرات، والذي يخال الناس عادة انه برج بابل، فقد صرح لي الكولونيل رولنسون بأنه لا يعتقد أن استكشافه سهل إلا عن طريق لغم يشق انفجاره البرج إلى شقين، ويفتح لنا داخله، وإذا كنت قد نجحت فيما بعد في عقد صلات طيبة جدا مع الأعراب أسياد الصحراء التي يقع فيها بير- نمرود، فلكي استطيع القيام بعمل من هذا النوع، فهل تأذنون لي يا معالي الوزير باللجوء إلى هذا الإجراء؟..."، ولم تستطع البعثة تحقيق نتائج مهمة، باستثناء كشفها النقاب كليا عن تمثال أسد بابل، الرابض على تلة القصر، وأعادت تنصيبه من جديد على قاعدته[٧٩]، ويعزى هذا الفشل إلى المتاعب الكثيرة التي واجهتها البعثة، من جراء الثورات التي اجتاحت وسط وجنوب العراق في عهد نامق باشا، خلال ولايته الأولى على بغداد سنة ١٨٥١م[٨٠]، فأشار تافرينييه في رسالته المؤرخة في ٢١ مايس ١٨٥١م إلى تداعيات هذا الوضع: "ان الانتفاضة تجعل السلطات في أسوأ حالة من حالات القلق والاضطراب والحيرة نظرا للعجز المطلق الذي تجد نفسها تتخبط فيه .."[٨١].

من النتاجات المهمة في حقل التنقيبات الآثرية نذكر كتاب "*Layard of Niniveh*" وكتاب "رحلات باحث في كلدة وسوسا" الذي نشره وليم كنت لوفتس *W. K. Loftus* وهو نتاج عمل سنتين في آشور وبابل، إذ كان هذا قد عمل في لجنة الحدود العثمانية- الفارسية بين عامي ١٨٤٩-١٨٥٢م، بصفة جيولوجي ضمن الوفد الذي ترأسه ميجر جنرال ويليامز *W. F. Williams*، واتجه للعمل بالتنقيبات بتكليف وبمساعدة من هنري رولنسون القنصل البريطاني في بغداد[٨٢]، وهناك أيضا كتاب "رحلات إلى العراق" الذي ألفه السير واليس بدج *W. Bidge* الموظف في المتحف البريطاني، والذي أرسله لمعالجة مشكلة تسرب القطع الأثرية المستخرجة من العراق إلى أوربا سنة ١٨٨٨م، وبالفعل فقد نجح بدج بنقل كميات كبيرة من الألواح، واستطاع كسب بعض المتعاونين المحليين الذين باعوه الكثير من المخطوطات النادرة[٨٣].

أما بالنسبة لموقف السلطات العثمانية من عمليات التنقيب والصراع بين الانكليز والفرنسيين في هذا المجال، فقد رضخ الباب العالي في اكثر الأحيان لضغوط دبلوماسيي الدولتين بحسب قوة وتأثير نفوذ كل منهما لدى السلطات العثمانية، والتي أصدرت العديد من الأحكام والأوامر إلى مختلف ولاتها في العراق لمنح الرخص للمنقبين الأجانب ولتسهيل مهام عملهم، فوجهت والي البصرة ثابت باشا بمنح رخصة البحث والتنقيب عن الآثار القديمة للقنصل الفرنسي في البصرة دي سارزاك *de Sarzec* لمدة ثلاث سنوات، وقد راعت بأوامرها تلك اعتبارات عدة، منها حظر بعض الأماكن على المنقبين كالمساجد والمقابر والمناطق المملوكة لأناس اعتياديين قبل الحصول على إذن من أصحابها وغيرها[٨٤]، وحتى عندما وجهت والي بغداد رؤوف باشا ومتصرف لواء الموصل عبدي باشا، بمنح إجازة التنقيب عن الآثار للباحث البريطاني سميث *Smith* بناء على طلب السفارة البريطانية في استانبول، إلا أنها أكدت في نص الفرمان، على مراعاة المنقبين لجميع الأصول والقواعد الموضوعة لمثل هذه النشاطات، كالتي ذكرت آنفا[٨٥].

٤- البعثات العلمية:

وفد العراق العديد من الرحالة والبعثات التي تهتم بالنواحي العلمية والاستكشافية، منها ما يعود إلى آلاف السنين، فهناك رحلة المؤرخ هيرودوتس*Herodotus* (٤٨٤-٤٣٠ق.م) الذي زار بلاد ما بين النهرين وأبحر في نهر الفرات ووصل إلى مدينة بابل[٨٦]، وزارها أيضا المؤرخ سترابو*Strabo* (٦٣ق.م-٢٤م)، الذي يعد واضع الجغرافيا الإقليمية أو السياسية، ووصف البلاد المحيطة بالبحر المتوسط، وسبق في كثير من الآراء من كتبوا في الجغرافيا البشرية في القرن التاسع عشر[٨٧]، وتجول فيه أثناء حكم الإمبراطور الروماني أغسطس *August* (٢٦ق.م-١٤م)، وقدم وصفا لبلاد مابين النهرين في كتابه السادس عشر[٨٨]، كما تحدث عن الأكراد في مصنفه الجغرافي، وأطلق عليهم اسم *Kyrtioi*، وأشار إلى بابل قائلا: "لقد صارت المدينة العظيمة صحراء"[٨٩]، كما ذكرها ديودورس الصقلي *Deodorus of Cecily* الذي ولد سنة ٦٥ق.م وتوفي بعد سنة ٢١م، فقد كتب في مجلده الثاني من كتابه عن سقوط نينوى قائلا:" إن الأعداء كانوا يحيطون بنينوى، لكن الملك لم يهتم لثقته بانتصاراته السابقة، فأقام الحفلات لجنوده وسكروا وعرف ارباس قائد العدو هذه الحقائق من الفارين من المدينة، فهاجمها ليلا بنجاح عظيم، وكانت الخسائر هائلة بسبب السكر وعدم النظام ..."[٩٠].

سيطر الدين على كافة نواحي الحياة في العصور الوسطى، في الغرب المسيحي، وأخذت الرحلات تنحصر في الجانب الديني أو ما يرتبط به سياسيا كعقد التحالفات ضد المسلمين، وبدعم وإشراف من الفاتيكان، وأصبح العلم والعلماء تحت هيمنة الكنيسة ومراقبتها، وفي هذه الأجواء انعدمت الرحلات العلمية، لتعود وتظهر مرة أخرى مطلع القرن السابع عشر، بعد التطور في النظرة إلى الإنسان والعالم، ومع أن هذه البعثات علمية اسما، إلا أن بعضها كان يتخذ من هذه التسمية ستارا لمآرب أخرى، بعضها سياسيا وبعضها استخباريا[٩١]، كما هو الحال مع بعثة اوليفييه وبروجيه الفرنسية التي ذكرناها سابقا، ومن الرحلات العلمية نذكر هنا رحلة الدكتور الهولندي ليونهارت راوولف *L. Rawolf* التي

حملت عنوان "رحلة المشرق إلى العراق وسوريا ولبنان وفلسطين سنة ١٧٥٣م"، وكانت الغاية منها هي دراسة النباتات والأعشاب الطبية التي تنمو في الشرق، إلا أن ما شهده خلال هذه الرحلة وما سمعه، قد أضفى عليها مسحة من المتعة وقدرا كبيرا من المعلومات التاريخية والجغرافية والاجتماعية والاقتصادية، ما يؤلف جزءا لا يستهان به من تاريخ العراق وبعض البلدان العربية الأخرى في الفترة المظلمة، ورغم التأكيد على علمية هذه الرحلة من حيث الهدف، إلا أن فيها العديد من المعلومات غير الدقيقة، إذ يقول مثلا:" إن أكثرية سكان الموصل من النسطوريين الذين يزعمون بأنهم مسيحيون، لكنهم في الحقيقة أسوأ من أية طائفة أخرى، ذلك أنهم لا يمارسون غالبا أي عمل كان سوى ترصد الطرق والانقضاض على المسافرين وقتلهم وسلبهم"[٩٢]، والصحيح أن الأكثرية من السكان هم المسلمون، ولعله قصد أن الغالبية من المسيحيين هم نساطرة، ويعلق د.علي شاكر بان شك راوولف في مسيحية النساطرة وقيام هؤلاء بأعمال السلب والنهب والقتل غير دقيق، إذ لا يعقل أن لا يمارس هؤلاء غير هذه الأعمال، وهم من الجماعات المستقرة سواء داخل المدينة أو في الحواضر الملحقة بها، وربما كان التباين المذهبي دافعا له لإطلاق هذا الحكم على مسيحيي الموصل، إذ انه كان بروتستانتيا[٩٣]، وقد يؤكد هذا الكلام قول المترجم، بان هناك انتقادات قاسية، لم يكن لها مبرر سوى جهله بأحوال البلاد وتعصبه لعقيدته وقوميته ليس إلا[٩٤]، وهذه الملاحظة لا تقلل من أهمية هذا الكتاب، بوصفه مصدرا من مصادر دراسة التاريخ، لأنه احتوى على معلومات مهمة، فضلا عن أن الهدف منه كان علميا ألا وهو البحث عن الأعشاب الطبية، إذ نلاحظ أن فيه ملحقا بأسماء النباتات التي صادفها راوولف في رحلته إلى الشرق، كما وصف الآثار والعادات والتقاليد الاجتماعية، وقد وضع رحلته هذه بالهولندية ومنها ترجمت للعربية .

زار المؤرخ الفرنسي بولاي لاغيز *Boullay Le Guiz* العراق وتجول فيه في القرن السابع عشر، وقد أشار إلى أهمية مدينة الموصل التجارية وشبهها بمدينة بيزا الايطالية، وذلك للميلان الذي أصاب الجامع النوري المماثل لبرج بيزا المائل - وهو التشبيه الذي درج في كتابات معظم الرحالة الذين زاروا المدينة[٩٥]- وقد جمعت رحلات لاغيز في كتابه الذي طبع في باريس بعنوان:"رحلات ومشاهدات لاغيز"[٩٦]، ومن النتاجات المهمة في هذا المجال رحلة الدانمركي الألماني الأصل كارستن نيبور *K. Niebuhr*، الذي جاء ضمن البعثة الفنية للبحوث العلمية في الشرق الأدنى وجنوب الجزيرة العربية بصفة خاصة، إذ دخل نيبور في خدمة الملك والتحق بهيئة البعثة، وقد وزعت مهام البعثة بحيث ألقيت على عاتق نيبور تبعة الأبحاث الجغرافية، بينما كان على بقية العلماء الاسكندينافيين الأربعة، أن يعملوا في تدقيق اللغات والعلوم الطبيعية، وانطلقت الرحلة سنة ١٧٦٣م من الإسكندرية، فوصلت إلى بلاد اليمن، حيث توفي رئيس البعثة فون هافن *Von Haven*، وطبيبها د. فورسكال *Dr. Forskal*، أما العضوان الآخران وهم كل من د. كرامر *Dr.Gramer* وبورينفيند *Bauernfeind*، فقد وافاهما الأجل في الطريق إلى بومباي، وبذلك أصبح نيبور العضو الوحيد الذي بقي على قيد الحياة من الهيئة، فاستمر بمفرده على انجاز رحلته وتدقيقاته[٩٧]، وقد عرف عن نيبور دقته في جمع المعلومات التاريخية، والدراية في استخلاصها من الثقاة والرواة عن الأماكن التي لم يستطع زيارتها بنفسه، ومن البصرة بدأ رحلته في العراق، ومن الجدير بالذكر انه رسم خريطة للخليج العربي، هي أفضل ما رسم لهذه المنطقة حتى نهاية القرن الثامن عشر، ولها أهميتها التاريخية، إذ أنها تبين منازل القبائل العربية المختلفة على شواطئ الخليج[٩٨]، وقد كانت رحلة نيبور في العراق قد قسمت على ثلاث مراحل الأولى من البصرة إلى الحلة[٩٩]، أما رحلته من بغداد إلى الموصل فقد ترجمها محمود الأمين، وللتأكيد على دقة الملاحظة وطبيعة نيبور في التعامل، نورد هنا مقطعا في الحديث عن مسالة اجتماعية حساسة في الموصل، ألا وهي اشتراك مختلف الطوائف في تقديس المزارات المشتركة، فيقول عن مسجد النبي يونس (ع):"...واليهود يقدسون الضريح حتى يومنا هذا، ولكن منذ أن دخل في حوزة المسلمين لا يجسرون على التقرب منه، على أنهم يحجون إليه ويزورونه من خارج المسجد ويقولون إن المسلمين لا يسمحون لهم بالدخول في المسجد وزيارة الضريح وهذا ادعاء كاذب من اليهود لان الموصليين لا يمنعون

المسيحيين مطلقا من زيارة أضرحة أولياءهم وقديسيهم في الأماكن التي كانت في زمن ما كنائس ثم حولت إلى مساجد وجوامع ولهم مطلق الحرية في زيارة هذه الأضرحة قدر ما يريدون ومتى ما يشاءون، ولربما كان السبب في ذلك هو أن اليهود لا يريدون الدخول في معبد لا يعود إلى دينهم، أو أن بخلهم الشديد يمنعهم من ارتياد بيوت عبادة المسلمين حتى لا يتبرعوا بشيء من المال لأعمال البر والخيرات ..."(١٠٠).

كانت حكومات الهند هي صاحبة فكرة طريق العراق إلى الهند، بعد ازدياد التنافس والصراع مع فرنسا حول الهند، فكان أول من دعا إلى وضع هذه الفكرة على ارض الواقع، هو الكولونيل فرنسيس راودن جسني *F. R. Chesney*، وذلك بتشجيع من اللورد هنري ج. ت. بالمرستون *Palmerstone Henry J. T.* (١٧٨٤-١٨٦٥م)، ودعوات البرلمان البريطاني لإنجاح هذا المشروع(١٠١)، إلا أن الخلاف الذي حصل بين شركة الهند الشرقية والحكومة البريطانية حول تحمل النفقات، دفعت جسني إلى القيام بالعمل دون مقابل مع ٥٠ من صغار الضباط أواخر سنة ١٨٣٦م، وحصل على تصريح بالعمل في وادي دجلة والفرات بوساطة اللورد بنسنبي *Bonsonby* الذي كان يركز جهوده في تلك الفترة للقضاء على محمد علي(١٠٢)، إلا أن بداية عمل البعثة كان أواخر سنة ١٨٣٠م، عندما اتجهت من دمشق إلى عنه، ومن هناك ركب ألكلك في نهر دجلة إلى الفلوجة، وكان يسبر عمق النهر ويسجل أسماء القرى التي يمر بها، وبعد أن وصل إلى بغداد رحل إلى البصرة ودرس نهر الكارون، وبعد أن قدم إلى حكومته المعلومات اللازمة، تألفت البعثة برئاسته لدراسة نهر الفرات دراسة رسمية، وقد أكملت البعثة مهمتها بعد ثلاث سنوات، ووضعت فيها الأدلة الكافية، لمدى الفائدة التي بالإمكان الحصول عليها، من خلال التقرير عن مدى صلاحية نهر الفرات للملاحة، تمهيدا لافتتاح طريق جديد يربط الخليج العربي بالبحر المتوسط خلال نهر الفرات، والنواحي العسكرية لتأمين الدفاع عن الهند(١٠٣)، وقد استخدمت البعثة سفينتين بخاريتين، غرقت أحداهما اثر عاصفة رملية في حوض نهر الفرات، وواجه عمل البعثة صعوبات أخرى(١٠٤)، كان أبرزها العوائق والقلاقل التي كان يضعها الفرنسيون أمام المشروع، ولاسيما ما قام به القنصل الفرنسي في البصرة فيكتور فونتانيه *V. Fontanier* (١٨٣٦-١٨٣٨م)(١٠٥)، والذي تركزت مهمته الأساسية في الاطلاع على واقع المصالح البريطانية في العراق، وإتباع شتى السبل لعرقلتها ومنع تناميها، فكان يحذر الأهالي من أطماع الانكليز وخطورتهم على المنطقة ومصالح سكانها، فقاومت القبائل مرور الباخرة "الفرات" تنفيذا لمقترحاته(١٠٦)، وقد كتب هو الأخر كتابا بعنوان "رحلة إلى الهند ومصر والخليج"، تكون من ثلاثة أجزاء، وصف فيه بغداد والمحمرة والبصرة التي خصص لها خمسة فصول(١٠٧)، وصف لونكريك هذا الكتاب، باحتوائه على معلومات كثيرة ولكنها غير منتظمة، ومتحامل فيها على الانكليز بشدة، كما رافق هذه البعثة (جسني) الألمانية مدام هيلفر *M. Healver*، والتي كتبت هي الأخرى كتابا عن رحلتها تلك عنوانه"رحلات الدكتور والمدام هيلفر"(١٠٨).

وفي مجال الدراسات اللغوية والاثنوغرافية، زار العراق المستشرق والرحالة الروسي وليام فرانتسيفيچ ديتيل *W. F. Dittel* ضمن بعثة لتعلم اللغات الشرقية سنة ١٨٤٢م، وقد تناول في رحلته النواحي الاجتماعية والاقتصادية لليزيدية في الموصل والأكراد في شمال العراق(١٠٩)، وفي سنة ١٨٨٠ وصل العراق المستشرق الألماني ادوارد زاخاو *Edward Sachau* ضمن مخطط ألماني لتكوين مكتبة شرقية في برلين للمخطوطات والمؤلفات الشرقية، وبتمويل من القيصر الألماني فيلهلم الأول *Wilhelm I* (١٨٦١-١٨٨٨م)(١١٠)، ولم يقتصر اهتمام الألمان على هذا المجال، إذ أن تزايد اهتمام الدول الاستعمارية بمصدر الطاقة الجديد (النفط)، جعل العراق وجهة للعديد من البعثات الجيولوجية والعسكرية والصحفية، لاسيما وان هناك من الرحالة من أشار إلى وجود هذه المادة في العراق(١١١)، فتم إرسال البعثة الألمانية إلى العراق لدراسة المعلومات المتعلقة بوجود النفط لوضع إستراتيجية مناسبة للاستفادة منه، فأصدرت البعثة تقريرها سنة ١٩٠١م(١١٢)، وأكدها د. باول روهرباخ *Paul Rohrbach* احد أساطين السياسة الاستعمارية الألمانية، مشيرا إلى وجود:" منبع من أغنى منابع النفط في العالم بجوار

نينوى حيث تمر سكة حديد بغداد برلين"(١١٣)، ولم تقف روسيا موقف المتفرج على هذه التطورات، بل أرسلت بعثة عسكرية برئاسة الجنرال توميلوف *Tommylof* لدراسة الأبعاد العسكرية لمشروع سكة حديد بغداد - برلين، فأبدت معارضة قوية لهذا المشروع، لما له من نتائج سلبية على الاقتصاد الروسي(١١٥)، وفي القرن العشرين توجه العديد من علماء البيولوجي والأنثروبولوجي إلى جنوب العراق، وخاضوا في أهواره وعاشوا بين أهله وألفوا كتبا وصفية لنباتاتها ومناخها وسكانها، وتحدثوا عن تجاربهم الشخصية، أمثال ويلفرد تسيغر *Wilfred Tziger* "مكتشف" الأهوار الأوربي، وكيفن ماكسويل *Kevin Maxwell* الذي أمضى عدة أسابيع في الأهوار سنة ١٩٥٦م، وقد أشار *Gavin Young* إلى أن كتابه الذي أصدره سنة ١٩٧٧م هو تكملة لوصف التغيرات التي حدثت لاحقا في العراق وأثرت سلبا على عرب الأهوار الذين وصفهم بـ"المعدان"، وقدسية الحياة والتاريخ لأهوار العراق(١١٦).

٥- التجارة :

للتجارة دور مهم في علاقات الأوربيين بقارة أسيا خلال العصر الوسيط، وكانت تجارة الحرير والتوابل، دافعا قويا للبحث عن الطرق المؤدية للشرق برا وبحرا، واكتسبت البندقية أهمية تجارية خاصة، بين المدن الايطالية في القرن الثالث عشر، حيث كانت تستقبل سفنا من كل موانئ العالم المعروف في ذلك الوقت، فمنها من يأتي من القسطنطينية ليدخل البحر الادرياتيكي، ومنها من أنطاكية على شواطئ سوريا والإسكندرية في مصر، ومن فرنسا وانكلترا وألمانيا، واهم السلع كانت تحمل إليها، الحرير من الصين، والموسلين من العراق(١١٧)وفارس، والعاج واللؤلؤ والأخشاب والتوابل من الهند، وكانت بعض هذه السلع تنقل على ظهور القوافل إلى طرابزون، الواقعة على البحر الأسود ومنها تنقل بحرا إلى البندقية، وحمل التجار الأوربيون بضائعهم أيضا إلى الشرق، أما على ظهور الخيل عبر ممرات جبال الألب، أو بمحاذاة الشاطئ الغربي لفرنسا بحرا، ثم عبور جبل طارق إلى البحر المتوسط، وكانت من أهم هذه السلع الأصواف، والمعادن، والأخشاب، والأقمشة والفراء(١١٨)، أما الطرق التي سلكها الرحالة في العراق فقد أخذت حيزا واضحا في كتاباتهم، فتناولوا بالتفصيل الطرق التجارية بنوعيها البري والنهري، ووسائط النقل المستخدمة من حيوانات وقوارب وأكلاك، والمخاطر التي تواجه المسافرين فيها كهجمات العربان وقطاع الطرق، والضرائب و(الخاوات) التي يتوجب عليهم دفعها وغيرها(١١٩).

كان من أشهر التجار البنادقة ماركو بولو *Marco Polo* (١٢٥٤-١٣٢٤م) الذي سجل رحلاته وذكرياته في كتابه المعروف الـ" مليون "، والموصوف بأنه من أوائل التقارير ذات الأهمية العلمية في القرن الثاني عشر الميلادي(١٢٠)، وكان هذا قد سافر مع أخويه وهو طفل للتجارة بالمجوهرات، وعادوا مرة أخرى بمباركة من البابا، ومحملين بهداياه إلى الخان الأعظم للصين، وسلكوا طريق الحرير، عبر وسط أسيا مرورا بالعراق وفارس وبلخ، ثم إلى البامير فواحة كشفر ومنها إلى لوب نور، وعبروا بعدها صحراء جوبى القاحلة حتى وصلوا للصين بعد ٣ سنوات، وقد حظي ماركو بولو بإعجاب إمبراطور الصين، واختاره للمهام الرسمية في بلاده والبلاد المجاورة، وكان ذلك فرصة ليقدم وصفا دقيقا لمدن الصين وكل ما فيها(١٢١)، بخصوص العراق فان معلوماته موجزة ولكنها دقيقة، فقد لوحظ عن ماركو بولو ان جل اهتمامه انصب حول الملوك وأخبار المعارك العسكرية، أما المعلومات التي ساقها عن البلدان المختلفة التي مر بها أثناء رحلته ذهابا وإيابا فكانت بمثابة أخبار يسوقها عابر سبيل، لذلك كانت معلوماته غير واقعية عن بعض عادات الناس وتقاليدهم(١٢٢)، إلا انه تحدث عن الموصل وتكوينها القومي والديني، وتناول أهم المعلومات عن اقتصاد المدينة، فيقول:" تصنع ثمة جميع أقمشة الحرير والذهب المسماة موزلين *Mussolin* فانه من هذه المملكة تأتي التجارة الضخمة المسماة بالموزلين، حاملة ألينا تلك الكميات الكبيرة من أصناف ثمينة من كل نوع، سواء من المجوهرات، أو من الأقمشة الذهبية والحريرية"(١٢٣)، وعن كردستان تحدث بعبارات تدل على انه مطلع اطلاعا جيدا

على بلد الجبال هذا، الذي يسكنه بمعية الأكراد كثرة من المسيحيين وهم على مذهبي النسطورية اليعقوبية، ومسلمون من أتباع محمد (ص) ويطلق عليهم اسم *Saraceni*[١٢٤]، ووصف الأكراد بأنهم شعب محارب وكئيب، واغلب الظن إن حدوث تجربة قاسية هي التي أدت إلى هذا الانطباع[١٢٥].

وثق أهالي البندقية علاقات متينة مع الشرق في القرن الرابع عشر، ومنهم من قصد فارس وكان طريقهم مرورا بمحاذاة كردستان بأرمينيا الصغرى، ورغم فقدان الأسبقية التجارية في القرن السادس عشر، نلقى زيادة في التقارير عن كردستان، علاوة على ذكر رحلات قام بها بعض الرحالة، أمثال رونشينوتو *Roncinotto* أو بعض التجار أمثال بالبي *Balbi*، والتاجر ألبندقي الذي عرف بمجهول الهوية، بينما قام تاجران آخران من البندقية، من آل فيكيتي *Vecchietti* بمهام دبلوماسية في الشرق، وذلك بفضل معرفتهما لعدد من اللغات الشرقية، وتدهورت الصناعة والتجارة الايطالية في القرن السابع عشر، وكانت البندقية تخوض معارك دموية مع الدولة العثمانية، حتى إنها فقدت رويدا رويدا ما كانت تمتلكه في الشرق، فانخفض بذلك عدد المسافرين سعيا وراء التجارة إلى عدد الأصابع، وهذه هي فترة ازدهار الكشوف الجغرافية[١٢٦]، إذ نشط الأوربيون في كشف مناطق عديدة من العالم، وأصبح بإمكانهم الإبحار في أي مسطح مائي والعودة مرة أخرى إلى مواطنهم، وقد كان للبرتغاليين الريادة في قيادة حركة الاستكشافات الجغرافية في بداية القرن الخامس عشر، وما لبثت أن تبعتها اسبانيا في منتصف القرن الخامس عشر وحتى هولندا كقوة بحرية، فظهر من التجار الذين كتبوا عن العراق في رحلاتهم أمثال سيزار فريدريجي *C. Fredrcci* التاجر ألبندقي الذي زار العراق سنة ١٥٦٣م ووضع كتاب اسماه "رحلات"، وغاسبارو بالبي الآنف الذكر وجون نيوبري *J. Newbry* اللندني الذي زار العراق سنة ١٥٨١م[١٢٧]، وفي سنة ١٥٨٣م وفدت البعثة البريطانية التجارية الأولى إلى العراق في طريقها إلى الهند، والتابعة لشركة تركيا والشرق الأوسط *Turkey and near east* التي تأسست سنة ١٥٨١م، وقد ضمت مجموعة من التجار المغامرين الذين لم يتجاوز عددهم العشرة أشخاص، وقد عبروا الفرات إلى بغداد والبصرة، وكان من بينهم رالف فيج *Ralph Figge* الذي عاد إلى العراق مرة أخرى مارا ببغداد والموصل في طريق عودته[١٢٨]، ومن الرحلات التي اهتمت بالجانب التجاري رحلة البرتغالي بيدرو تكسيرا *PedroTeixeira* المتوفى سنة ١٦٤١م، الذي كلف بمهمة الاستكشاف لمواجهة النشاطات التجارية للهولنديين والانكليز، وقد تحدث بشكل وافٍ عن العراق في مختلف المجالات التجارية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية، كما زار مدينتي النجف وكربلاء وسجل ملاحظاته عن الأضرحة المقدسة وعادات وتقاليد الأهالي في مختلف المناسبات[١٢٩]، وفي أواخر القرن السابع عشر زار الرحالة البريطاني وليام هيدجز *William Hedeges* العراق وسجل ملاحظاته عن الحالة الاقتصادية وطرق النقل والمواصلات مما يوحي إلى أن رحلته كانت تهتم بالجانب التجاري في هذه المنطقة [١٣٠].

٦- السياحة و المغامرة :

لابد من الإشارة إلى أن هذا العامل لم يقتصر على العصور الحديثة، بل إنَّ له جذورا عميقة في رحلات الأوربيين إلى الشرق، فقد تزعم زينفون *Xenophon* (٤٣٠-٣٥٤ق.م) حملة من المرتزقة إلى بلاد فارس، التي كانت تشهد صراعا على العرش الفارسي في تلك الفترة، وقد أشار إلى الأكراد (كاردوكي *Carduchi*) عندما هاجموا بقية العشرة ألاف جندي سنة ٤٠١ق.م، بالقرب من مدينة زاخو الحالية، مستخدمين حرب العصابات، وقد أوقعوا بهم خسائر كبيرة:" لم يفعلوا (أي الجند اليونانيون) شيئا أخر، مدة سبعة أيام غير القتال، وذلك لدى اجتيازهم الأراضي التي يسكنها الأكراد (كاردوكي)، وقد تأذوا من جراء مضايقات شتى لا يمكن حصرها، تفوق ما ألحقها بهم الملك وتيسافرون"[١٢٧]، أما بوليبوس *Polypus* المؤرخ اليوناني[١٣١]، صاحب الاهتمامات الجغرافية، الذي أرسله سكيبيو في رحلة استكشافية على طول الساحل الشمالي الغربي لإفريقيا، حتى وصل إلى بلاد مابين النهرين، وتحدث عن

سكانها، وقد أشار بوليبوس إلى أن العبيد الأكراد (كرتي) كانوا قد شاركوا خلال السنوات ٢٢٠ و١٧١ ق.م في الحرب الدائرة بين روما والسلاجقة وملك برغامو (ايطاليا)، وذلك في أسيا الصغرى[١٣٢].

وفي العصور الحديثة، تحولت السياحة والمغامرة إلى دافع ذاتي، فالأوربيون يمتلكون القدرات النفسية والتكنولوجية والاقتصادية ليقوموا برحلاتهم الاستكشافية، إذ أن ازدهار الطبقة الوسطى في المجتمعات الأوربية، ووصولها إلى درجة من البحبوحة الاقتصادية أسهمت بارتفاع مستوى وعيها وإقبالها على التعليم والتوسع بالمعرفة، قد دفعها إلى القيام برحلات سياحية إلى المشرق، لإشباع غريزة المعرفة وحب الاستطلاع والاستمتاع[١٣٣]، وحيثما ذهبوا وجدوا أمامهم شعوبا بدائية أو متخلفة لا يمكنها مواجهتهم، وفي ذات الوقت كان الشرق يمثل لغزا محيرا، قد استمعوا إلى القصص المشهورة عنه، فانتابت الرغبة الكثير منهم لسبر أغواره، فمنهم من كان دافعه الشهرة، والتي دعتهم إلى التشبه بالأبطال الرومانيين الفاتحين لمناطق لم يصلها الأوربيون، أو إغراء المال أو الاستكشاف، وتأليف الكتب عن مناطق جديدة وغيرها، ونرى من بين الرحالة العديد ممن تنطبق عليهم هذه المواصفات، ومن بين هؤلاء يبرز الرحالة ديلا فالا *P. Della Valle* (١٥٨٦-١٦٥٢م) الذي زار بغداد سنة ١٦١٦م، ويعد من أشهر الرحالة الذين ساحوا في الشرق خلال القرن السابع عشر، واستغرقت رحلته خمس سنوات زار خلالها بابل وأشور وغيرها[١٣٤]، وقد سجل رحلاته في كتاب تحت عنوان"رحلات بيتر ودي لافالا في الهند"، وصف هذا الرحالة بصفات نبيلة فهو يبدو في معلوماته أنسانا، لطيفا، وذا فروسية، ولا يعتبر من الغرابة بمكان أي شيء يشاهده، ولا يبان له أي شعب يقصده غريبا، وذلك بسبب نفسه الكبيرة السخاء وروحه الواعية، انه نبيل، ويود حتى في البلاد البعيدة، ولدى أقوام توصف بالتوحش، أن يقدم الدليل على نبله ...[١٣٥]، وقد تم التركيز على صفات هذا الرحالة في الطبعة اللاحقة للرحلة والتي جاءت ضمن سلسلة أوائل الكتب الانكليزية، وأضيف إلى العنوان صفة "النبيل الروماني"[١٣٦]، وقد زار بغداد ووصف موقعها وأسواقها وحالتها العمرانية والسلع والبضائع المتوفرة فيها، كما اعتبر ديلا فالا مصدرا مهما بالنسبة للمعلومات عن الأكراد وكردستان، من حيث اللغة والدين والعادات ودور المرأة، ويؤكد على خواص اللغة الكردية والممارسات الدينية التي يتمسك بها هؤلاء، والوضع السياسي، وقد أكدت كتب الرحالة اللاحقين دقة تقرير ديلا فالا واهتماماته[١٣٧]، ويعتبر أيضا من المصادر المهمة لتاريخ البصرة، خلال حكم أل افراسياب وإقامتهم لحكومة مستقرة في البصرة، لذلك أرسل لهم الباب العالي (وسام الشرف) والرسل لتأكيد ولايتهم، وينفرد كذلك بشرح تفاصيل حملة قلي خان سنة ١٦٢٤م، ومحاولته الوصول إلى البصرة[١٣٨].

من السياح أيضا زار العراق سنة ١٦٣٨م، ج. و. ثيفنو *J. De Thevnot* (١٦٢٣-١٦٧٧م) وهو سائح فرنسي، كان عاشقا للشرق وراغبا في اكتشاف أسراره، واخذ يتجول في تركيا والشرق الأوسط، وانطلق إلى فلسطين ومصر وإيران وانتهى إلى الهند، وتوفي في طريق عودته إلى الهند في ميانا بأرمينيا، وقد جمعت رحلاته في ثلاث مجلدات، اتسمت بالبساطة لأنه كان يحب الاختلاط بالناس، ولم يكن يهدف من رحلاته سوى إشباع رغبة شخصية بالاطلاع على الشرق، تساعده على ذلك حالته المادية الجيدة، ومن طريف ماذكر حادثة خسوف القمر في مدينة الموصل: "وقد امتلأت سطوح البيوت بالناس طوال المدة التي دام فيها الخسوف، فاخذ الناس يحدثون ضجيجا متواصلا وذلك بضرب العصي على القدور، وكل ذلك من اجل تخويف حيوان مهول يهم بابتلاع القمر حسب اعتقادهم ..."[١٣٩]، والطريف أيضا إن هذه العادة استمرت حتى الثمانينيات من القرن الماضي، إلا أنها بدأت تختفي في التسعينيات ولم يعد لها اثر ألان. وهناك أيضا الرحالة جان باتيست تافرينيه *J. B. Tavernier* (١٦٠٥-١٦٨٩م) النبيل الفرنسي، الذي زار خلال رحلاته المتعددة مختلف أصقاع الأرض ومنها العراق، وطبعت في كتاب عنوانه "الرحلات الست في تركية وآسية"، وقد تحدث هذا عن الصابئة في العراق: "ونصارى القديس يوحنا كثيرون جدا في البصرة والقرى المجاورة لها، وقد كانوا في القديم يقطنون قرب نهر الأردن حيث مار يوحنا الذي نسبوا إليه ..."[١٤٠]، وفي كلامه الكثير من الأمور

الخاطئة وغير المثبتة تاريخيا حاله حال باقي الرحالة، ومن السواح أيضا هناك الرحالة الفرنسي كوليوم لي جان *Gallium Le jean* الذي تجول في الشرق الأدنى واسيا وأفريقيا، وكتب عن تجواله مؤلفات عدة منها "سكان تركيا الأوربية سنة ١٨٦١م"، و"رحلة إلى الحبشة سنة ١٨٦٥م"، والتي زارها بناء على دعوة النجاشي تيتو دوروس(١٤١)، وقد زار كردستان العراق سنة ١٨٦٦م وتجول في العمادية و زاخو وقرى النساطرة، وأشار إلى زيارته هذه قد أثارت خياله إلا أن ما نتج عنها ليس بالأمر المهم الذي يلفت النظر، وهو هنا قد تحدث بلسان السائح المتعطش لكل ما هو جديد وممتع وبعيد عن الرتابة(١٤٢)، ومن الانكليز برز من الرحالة الموصوفين بالسياحة وحب الترحال جيمس سلك بكنغهام *James S. Buckingham*، الذي زار العراق سنة ١٨١٦م، وتجول في الموصل واربيل وكركوك وبغداد وآثار بابل، ومع عن كونه موظفا في شركة الهند الشرقية الانكليزية، مما يولد الانطباع عن كون رحلته تتعلق بجوانب سياسية أو اقتصادية، إلا أن اختلافه مع الشركة في وجهات النظر، وانتقاداته القاسية لها وللسياسة البريطانية، تلغي ذلك الانطباع، وتعطي إيحاء بان هدفه الأهم كان المغامرة وحب الترحال والاطلاع على أسرار الشرق وسبر أغواره(١٤٣).

ومن المهم أخيرا، توضيح الأهداف التي من اجلها تغرب الرحالة، وذاقوا شظف العيش وتحملوا المخاطر، ووضعوا لنا هذا النوع من التدوين، والرأي السائد أن السياسة والتجارة والدين متشابكة معا، هي المحرك الأساس لاكتشاف أرجاء آسيا النائية، وبالتالي ظهور الرحالة ومدوناتهم، إلا أن معظم هؤلاء على اختلاف أهدافهم، لم يكونوا تجارا بالمعنى الحرفي للكلمة، ولكن هناك أسبابا مختلفة، دعت إلى قيام الراهب أو طالب العلم مثلا، للقيام بأمور قد تحسب بأنها تجارية، إلا أنها في الحقيقة، كانت أمورا تقتضيها متطلبات المرحلة، فهو يأخذ معه بعض السلع والمقتنيات للاستخدام الشخصي، وعند الحاجة يضطر أما إلى بيعها، وهذا الأمر نادر الحصول، لعدم اعتماد سكان المناطق النائية على نوع معين من النقد، أو إلى مقايضتها، وهو ما كان يحصل غالبا، من جانب أخر، كانت السلع والبضائع والمقتنيات، تقدم من قبل الرحالة كهدايا للسكان والزعماء وشيوخ القبائل والولاة، لتسهيل مهامهم في المرور أو توفير الحماية لهم، وهناك الكثير من الأمثلة والشواهد التي تزخر بها مذكرات الرحالة، فمن غير المنطقي أن نضفي على الراهب أو الموظف أو العالم صفة التاجر وبالعكس، لان التاجر معروف هدفه وأسلوبه وحتى الطرق التي يسلكها!.

الهوامش والتعليقات

(١) للمزيد عن هذا الموضوع، راجع: حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، عالم المعرفة، (الكويت، ١٩٨٩م)، ص ص١٧-٢٠ .

(٢) للمزيد عن المراحل التي مرت بها الرحلات الأوربية إلى الشرق، راجع بحثنا الموسوم: "تطور مفهوم الشرق في الفكر الأوربي من خلال كتابات الرحالة الأوربيين"، مقدم إلى مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، كلية التربية، جامعة القادسية، مج١٠، ع٣، ٢٠١١م .

(٣) انظر بحثه: "الموصل في كتابات الرحالة في القرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد"، ضمن بحوث ندوة الموصل في مدونات الرحالة العرب والأجانب، (الموصل ، ١٩٩٧م) ، ص ص٨٠-٩٠ .

(٤) للمزيد، أنظر : جريدة الوقائع العراقية ، ٦ شباط ١٩٧٤م ، ١٨ كانون الثاني ١٩٧٤ ، وغيرها .

(٥) عددهم بالأساس اثنا عشر إلا أن خيانة يهوذا الاسخريوطي أبعدته من صحبة المسيح في الدنيا والآخرة وأصبح يعرف بـ (ابن الهلاك)، للمزيد راجع:

J. C. Fenton, Saint Matthew, Penguin Books, Harmondsworth, Middlesex, (England, 1963), p.317.

(٦) إنجيل متى ٢٨ : ١٨- ٢٠ .

(٧) متى ١٠: ٥-١٠؛ مرقس ٣:١٥، ٦: ٧-١٣ .

(٨) للمزيد راجع: متى ١:٢٠، ٥:١٠-٨؛ يوحنا ١:١٠-١١؛ أعمال الرسل ٢: ١٤-١٥، ٢٢، ١٠: ٤٣ .

(٩) يوسف حبي، كنيسة المشرق، (بغداد، ١٩٨٩م)، ص٦٧ .

(١٠) بطرس نصري الكلداني، ذخيرة الأذهان في تواريخ المشارقة والمغاربة السريان، تكملة الجزء الثاني، نسخة خطية بحوزة الباحث، ص١٨ .

(١١) ل. دولي ستامب، الآراء الحديثة في علم الجغرافيا، ترجمة احمد محمد العدوي، سلسلة المعارف العامة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (القاهرة، ١٩٣٦م)، ص ٤.

(١٢) للمزيد راجع:

Samuel Zwemer, Raymond Lull, First Missionary to the Moslems, (London, 1902) .

(١٣) للمزيد عن هذه المشاريع، راجع:

Aziz Atiya, The Crusade in the later Middle Ages, (New York, 1970), p.p.75-92.

(١٤) بهنام سليم حبابة ،" الآباء الدومنيكان في العراق"، مجلة نجم المشرق، س ٦، ع٢١، (بغداد، ٢٠٠٠م)، ص٨٧ .

(15) Atiya, op. cit, p.89.

(١٦) علاء محمود خليل قداوي، "النساء الحاكمات في إمبراطورية المغول ٦٣٩- ٦٩٣هـ/ ١٢٤١- ١٢٩٥م"، مجلة المجمع العلمي العراقي، ج٤، مج٤٦، بغداد، ١٩٩٩م، ص١٥٢ .

(١٧) اوجين تيسران، خلاصة تاريخية للكنيسة الكلدانية، ترجمة سليمان الصائغ، (الموصل، ١٩٣٩م)، ص ص٩٣-٩٤ .

(١٨) غاليتي، المصدر السابق، ص ص٢٥٧- ٢٦٠ .

(١٩) تيسران، المصدر السابق، ص٩٥ .

(٢٠) غاليتي، المصدر السابق، ص ٢٥٧ .

(٢١) بارا زوت، تقرير الأب بارا زوت، من أرشيف الآباء الدومنيكان، ص١٠ .

(٢٢) عقد سنة ٤٥١م برعاية الإمبراطور مرقيلنوس Mrkianus بناء على طلب اسقف روما، والواضح ان السياسة تدخلت في عقده، وتقرر فيه الغاء مقررات مجمع افسس الثاني وإعلان الحرمان على اوطاخي، الداعي إلى فكرة أن لاهوت المسيح (كلمة الإله الرب، ابتلع ناسوته (جسده)، ا وان جسده ذاب في لاهوته، للمزيد، انظر:

Aloys Grillemier, Christ in the Christian Tradition, Vol.1, (London, 1975), p.543;

راجع الفصل التاسع من كتاب: شارل جينبير، المسيحية نشأتها وتطورها، ترجمة عبد الحليم محمود، المكتبة العصرية، (بيروت، د.ت)، ص ص١٤٧-١٦٤.

(٢٣) إبراهيم خليل احمد، "التحدي التبشيري"، ضمن كتاب: العراق في مواجهة التحديات، ج٣،(بغداد، ١٩٨٨م)، ص١٨٥.

(٢٤) حبي، المصدر السابق، ص ٢٤٩ .

(٢٥)) إبراهيم خليل احمد، "كتابات دومنيكو لانزا عن الموصل"، ضمن بحوث ندوة الموصل في مدونات الرحالة العرب والأجانب، (الموصل، ١٩٩٧م)، ص ١٠١ .

(٢٦) للمزيد، راجع: دومنيكو لانزا، الموصل في القرن الثامن عشر حسب مذكرات دومنيكو لانزا، ترجمة روفائيل بيداويد، ط٢، (الموصل، ١٩٥٣م)، ص، ص١٤-١٨، ٣٠-٣١؛ حبي، المصدر السابق، ص ص٢٥٢-٢٥٣؛ سلامة حسين كاظم، التبشير في العراق وسائله وأهدافه، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، (جامعة بغداد، ١٩٨٥)، ١٤٣.

(٢٧) احمد، المصدر السابق، ص ١٠٤ .

(٢٨) كاظم، المصدر السابق، ص١٤٥ .

(٢٩) راجع:

John A. Denovo, American Interests and Policies in the Middle East 1900-1939, (London, 1963), p.9.

(٣٠) للمزيد، انظر:

G. J.Edmonds, Kurds Turk and Arab Oxford University, (London, 1957), P2 .

(٣١) للمزيد، انظر:

M. M. Van Bruinessn, Agha Shaikh and State, (Utrecht, 1978), P226 .

(٣٢) ج. ج. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج٦، ترجمة مكتب أمير قطر، (الدوحة، ١٩٦٧م)، ص١٣٣ .

(33)H. L. Hoskins, British Rowtes to India, (London, 1960), P.171.

(٣٤) للمزيد راجع كتابه: أقدم أصدقائي العرب، ترجمة جليل عمسو، (بغداد، ١٩٤٩م) .

(٣٥) وهو النظام الذي حدد سلطات الحكومة العثمانية على رعاياها فقط، دون أن تمتلك الحق في محاسبة أو إلزام الرعايا الأجانب بقوانين الدولة، وقد أصبحت الامتيازات في القرن التاسع عشر ذات أهداف تمليها الظروف السياسية التي تربط طرفي الامتياز، فتبرز الأهداف التجارية مرة والأهداف السياسية مرة أخرى، أو يتدخل القناصل الأجانب في شؤون الدولة العثمانية، وللمزيد، انظر: سير ريد بولارد، بريطانيا والشرق الأوسط منذ أقدم العصور حتى العام ١٩٥٢م، ترجمة حسن احمد السلمان، (بغداد، ١٩٥٦م)، ص ص٣٣-٥٧؛ للمزيد، راجع:

Feruz Ahmed, The Yung Turks, "The Committee of Union and Progress in Turkish Politicals 1908-1914", (Oxford, 1969),p.62.

(٣٦) أرشيف رئاسة الوزراء باستانبول، دفتر مهمة٢٥٣، رقم البحث ٢٠٩، الصفحة ١٨٤، تاريخ الوثيقة أواسط ذي الحجة ١٢٥٥هـ؛ أرشيف رئاسة الوزراء باستانبول، دفتر مهمة ٢٥٣، رقم البحث ٢١٠، الصفحة ١٨٨، تاريخ الوثيقة أواسط شوال ١٢٥٥هـ .

(٣٧) علي، المصدر السابق ، ص ص ٨٤-٨٥ .

(٣٨) صادق ياسين الحلو،"النشاط الفرنسي في بغداد في القرن التاسع عشر"، ضمن كتاب العراق في التاريخ، (بغداد، ١٩٩٠م)، ص٥١٣ .

(39) A. Auzox, La France et Mascate, Revue de Diplomatique, Vol.24-251910 P525.

(٤٠) للمزيد عن الاباء الكرمليين ونشاطاتهم الدبلوماسية والدينية...، راجع: حيدر جاسم الرويعي، "نشاطات الاباء الكرمليين في العراق حتى الحرب العالمية الاولى"، مجلة القادسية للعلوم الانسانية، مج٨، ع١-٢، ٢٠٠٥م، ص ص١٠٨-١٢٨.

(٤١) صالح محمد العابد، موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي ١٧٩٨-١٨١٠م، (بغداد،١٩٧٩م)، ص٤٣.

(٤٢) الحلو، المصدر السابق، ص ٥١٦ .

(٤٣) تجول اوليفيه في عدد من الاقاليم العثمانية في السنوات الاولى من عمر الثورة الفرنسية ١٧٩٣-١٧٩٧م، وقد زار العراق مرتين، الاولى قادما من استانبول والشام، والثانية في طريق عودته من بلاد فارس الى فرنسا، ونشر حصيلة رحلته في (٤) مجلدات، تتناول ثلاثة منها تفاصيل رحلته، والرابع أطلس مصورات أشخاص وأزياء وأشجار ونباتات وحيوانات وخرائط، والفصول المترجمة هي من رحلته في العراق، وتبدأ بالفصل التاسع من المجلد الثاني منذ مغادرته أورفه حتى آخر فصل من المجلد الثاني، للمزيد، راجع رحلته في: اوليفيه، رحلة أوليفية إلى العراق ١٧٩٤-١٧٩٦م، ترجمة يوسف حبي مطبعة المجمع العلمي العراقي، (بغداد، ١٩٨٨م) .

(٤٤) العابد، المصدر السابق، ص ص٤٣-٤٤ .

(٤٥) لوريمر، المصدر السابق، ج١، ص ٢٨٤ .

(٤٦) محمد عبد الله العزاوي، "نشاط فرنسا السياسي في الخليج العربي والإجراءات البريطانية المضادة ١٧٩٣-١٧٩٨م"، مجلة الخليج العربي، مج١٨، ع٤، ١٩٨٦م، ص٣٥ .

(٤٧) علاء موسى كاظم نورس، احوال بغداد في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، (بغداد، ١٩٨٩م)، ص٢٧ .

(٤٨) يوسف شلحد (تحقيق)، رحلة فتح الله الصايغ الحلبي إلى بادية الشام وصحارى العراق والعجم والجزيرة العربية، ط٢، طلاسدار، (دمشق، ١٩٩٤م)، ص ص٩-١٠ .

(٤٩) جان سوبلان، لاسكارس العرب، ترجمة فريد جحا، طلاسدار، (دمشق، ١٩٨٧م) .

(٥٠) للمزيد عن الصراع بين هذه الأطراف، راجع: باسم حطاب الطعمة، "تغلغل النفوذ البريطاني في العراق ١٧٩٨-١٨٥١م"، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٥م، ص١٦؛

D. A. A. A. Nr. 297, Aufzeichnung des Hilfsarbeiters im Auswärtigen Amt von Kurowsky, z. Z. in Varzin, Varzin, den 31. Juli 1877 Die, P.P159-160; Percy Sykes, A history of Persian, Vol. II, (London, 1958), P. 195.

(٥١) خليل علي مراد،"دوافع رحلات الانكليز إلى الموصل وأطرافها في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين"، ضمن بحوث ندوة الموصل في مدونات الرحالة العرب والأجانب، ص١٥٨ .

(٥٢) للمزيد، انظر:

Major R. Evans, A Brief outline of the Campaign in Mesopotamia 1914-1918, (London, 1926), p.2.

(٥٣) مراد، المصدر السابق، ١٥٨ .

(٥٤) انظر:

Edmonds, op. cit p23.

(٥٥) ستيفن همسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر خياط، (بغداد، ١٩٤١م)، ص٣٦٠ .

(٥٧) سعاد هادي العامري، بغداد كما وصفها الرحالة الأجانب في القرون الخمسة الأخيرة، (بغداد، ١٩٥٤م)، ص٥٧.

(٥٨) مراد، المصدر السابق، ص ١٥٦ .

(٥٩) للمزيد، راجع رحلته في: كلوديوس جيمس ريج، رحلة ريج في العراق، ترجمة بهاء الدين نوري، ج٢، ط١، (بيروت، ٢٠٠٣م) .

(٦٠) راجع: دار الوثائق القومية، رقم المحفظة (٣٩)، رقم الوثيقة (٧٣)، تاريخ الوثيقة ٩ جمادى الأولى ١٢٤٨ هـ/ ٤ تشرين الثاني ١٨٣٢م؛ الوثيقة الصادرة في ١٥ رجب ١٢٤٨هـ، والمرقمة ١٩٨/٥، والمتمثلة بالخط الهمايوني الصادر من والي بغداد علي رضا حول انقطاع الطريق بين بغداد والموصل بسبب ثورة العشائر ووجود قوات محمد علي باشا في حلب .

(٦١) للمزيد، انظر:

Edmonds, op. cit, p.23-24.

(٦٢) راجع رحلته في: الميجر سون، رحلة متنكر الى بلاد مابين النهرين وكردستان، ترجمة فؤاد جميل، ط١، (بغداد، ١٩٧٠م)؛ وللمزيد عن صاحب الرحلة انظر: عمر علي شريف، "الميجر سون (١٨٨١-١٩٢٣م) ورحلته المشبوهة إلى كوردستان"، مجلة الصوت الآخر، ع٢٩٣، (اربيل،٢٠٠٦م):

www.sotakhr.com

(٦٣) عبد العزيز سليمان نوار، "أثار العراق والصراع الاستعماري في القرن التاسع عشر"، مجلة الهلال، شباط ١٩٦٥م، ص ١٣٥ .

(٦٤) جيمس بكنغهام، رحلتي إلى العراق، ترجمة سليم طه التكريتي، ج١،(بغداد،١٩٧٠م)، ص ٣٣ .

(٦٥) لونكريك، المصدر السابق، ص ٣٥٨ .

(٦٦) حيدر جاسم عبد الرويعي، "الآباء الدومنيكان في الموصل: دراسة في نشاطاتهم الطبية والثقافية والاجتماعية ١٧٥٠-١٩٧٤م"، رسالة ماجستير - كلية التربية، جامعة الموصل،٢٠٠١م، ص٦٥ .

(٦٧) نجيب العقيقي، المستشرقون، ج١، ط٣، (مصر، ١٩٦٤م)، ص٣٣٤ .

(٦٨) نوار، المصدر السابق، ص ١٣٧ .

(٦٩) للمزيد انظر:

Jean Claude Margueron, Mesopotamia, tr.H. S. B. Harrison, Nagel Publisher, (Switzerland, 1965), p.13;

جابر خليل إبراهيم، "الأنشطة الآثارية، التنقيب عن الآثار"، موسوعة الموصل الحضارية، مج١، مطبعة جامعة الموصل، (الموصل، ١٩٩١م)، ص٤٩١ .

(٧٠) سالنامة ولاية الموصل لسنة ١٣٢٥هـ، ص١٣٧ .

(٧١) للمزيد، راجع: اوجين فلاندن، رحلة في ما بين النهرين، ترجمة بطرس حداد، (بغداد، ٢٠٠٥م)، ص٣٦ وما بعدها .

(٧٢) انظر:

Gordon Waterfield, Layard of Nineveh, (London, 1963).p114.

(٧٣) للمزيد، انظر:

P. E. Botta, Monument de Ninive, tome V, (Paris, 1972).

(٧٤) نوار، المصدر السابق، ص ١٤٠

(٧٥) عبد العزيز سليمان نوار، تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا، (القاهرة، ١٩٦٨م)، ص٣٢١ .

(٧٦) للمزيد، انظر:

William Kennett Loftus, Travels and Research in Chalda and Susiana, (London,1971), p.IV.

(٧٧) للمزيد، انظر:

Henry Austen Layard, Neneveh and its Remains, (London,1949), p.46

(٧٨) نورا كوبي، الطريق إلى نينوى، ترجمة محمد سلسل العاني، (بغداد، ١٩٩٨م)، ص ص٣٢٠-٣٢١ .

(٧٩) مارغريت روتن، تاريخ بابل، ترجمة زينة عازار وميشال أبي فاضل، (بيروت، ١٩٧٥م)، ص ٢٥ .

[٨٠] تولى محمد نامق باشا ولاية بغداد على فترتين الاولى سنة ١٨٥١م والثانية ١٨٦١-١٨٦٨م،كان من الولاة المتشددين في جمع الضرائب حاله حال بقية الولاة العثمانيين الجشعين، مما اثار استياء اهل البلاد ومقاومتهم لهذه السياسة بثورات متعددة، عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٧، (بغداد، ١٩٥٣م)، ص ٢٧٤؛ نوار، تاريخ العراق الحديث، ص٣٢٢؛ وللمزيد عن هذه الثورات راجع مثلا: نظمي مرتضى زادة، كلشن خلفا، ترجمة موسى كاظم نورس، (النجف الاشرف، ١٩٧١م)، ص ٢٠٣.

[٨١] للمزيد راجع: بيير دي فوصيل، الحياة في العراق منذ قرن ١٨١٤-١٩١٤م، ترجمة اكرم فاضل، دار الجمهورية، (بغداد، ١٩٨٦م)، ص ص٢٦-٢٧ .

(82)Loftus, op. cit. p. V.

(83)John S. Guest, The Yezidi, A study in Survival,(London, 1987), p. 142.

[٨٤] أرشيف رئاسة الوزراء باستانبول، دفتر مهمة٢٦٣، رقم البحث ٩، الصفحة ٦٠، رقم الوثيقة ٣٠٩، تاريخ الوثيقة ٢٣ محرم ١٢٩٧هـ .

[٨٥] أرشيف رئاسة الوزراء باستانبول، دفتر مهمة٢٦٣، رقم البحث ٣، الصفحة ٣٣، رقم الوثيقة ٦٠، تاريخ الوثيقة ٢٢ محرم ١٢٩٠هـ .

[٨٦] للمزيد، انظر: حسين فهيم، قصة الانثروبولوجيا: فصول في تاريخ علم الإنسان، عالم المعرفة، (الكويت، ١٩٨٥م)، ص ص٤٣-٤٤؛ إبراهيم، المصدر السابق، ص ٣٢ .

[٨٧] ستامب، المصدر السابق،٣ .

[٨٨] محمود ابو العلا، الفكر الجغرافي، مكتبة الانجلو المصرية، (القاهرة، ١٩٩٨م)، ص١١ .

[٨٩] مأمون الباقر، "مقدمة لاغتيال المجتمع: الاختطاف السياسي من سيرفانتس إلى بيانكورت"، صحيفة البيان، ع٣٥٨، الثلاثاء ٢٠٠٦/١/٢١م .

[٩٠] للمزيد، انظر:

C. H. Oldfather, Diodorus of Sicily, first published, Harvard University Press, (London, 1933), p.p. VII-VIII;

وهيب كامل، ديودور الصقلي في مصر، دار المعارف بمصر، (القاهرة،١٩٤٧م)، ص٣ .

[٩١] للمزيد، راجع:

H. V. F. Winston, The Illicit Adventure, The Story of Political and Military Intelligence in the Middle East 1898-1926, Jonathan Cape Ltd, (London, 1982), p.p7-8.

[٩٢] ليونهارت راوولف، رحلة المشرق إلى العراق وسوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة وتعليق سليم طه التكريتي، (بغداد، ١٩٧٨م)، ص ص٥-٦ .

[٩٣] علي، المصدر السابق، ص ٨٣ .

[٩٤] راوولف، المصدر السابق، ص ٦ .

[٩٥] انظر مثلا: ماكس فون اوبنهايم، رحلة إلى بلاد شمر و شمال الجزيرة، مراجعة وتدقيق محمود كبيبو، ط١، (بغداد، ٢٠٠٧م)، ص ص٢١٣-٢١٤ .

[٩٦] بكنغهام، المصدر السابق، ص٨١ .

[٩٧] كارستن نيبور، رحلة نيبور إلى العراق في القرن الثامن عشر، ترجمة محمود حسين الأمين، مراجعة وتعليق سالم الالوسي، (بغداد، ١٩٦٥م)، ص ٤ .

[٩٨] للاطلاع على النسخة المصورة من الخريطة التي رسمها نيبور، انظر:

www.mahja.com.

[٩٩] نيبور، مشاهدات نيبور في رحلته من البصرة إلى الحلة سنة ١٧٦٥م، ترجمة سعاد هادي العامري، (بغداد، ١٩٥٥م) .

[١٠٠] نيبور، رحلة نيبور إلى العراق في القرن الثامن عشر، ص ١٠٢ .

[١٠١] راجع: صالح خضر الدليمي، "الدبلوماسيون البريطانيون في العراق ١٨٣١-١٩١٤م دراسة تاريخية"، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، (بغداد، ١٩٩٦م)، ص ص٢٧-٢٩ .

[١٠٢] حسين مؤنس، الشرق الإسلامي في العصر الحديث، ط٢، (القاهرة، ١٩٣٨)، ٣٦٩ .

(١٠٣) احمد عزت عبد الكريم، "العلاقات بين الشرق العربي وأوربا بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر"، ضمن كتاب دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة، (د.م ، د.ت)، ص ٢٦٥؛ مراد، دوافع رحلات الانكليز"، ص١٦٠ .

(١٠٤) للمزيد عن هذه البعثة، راجع:

F. R. Chesney, The Expedition for the survey of the Rivers Euphrates and Tigris, Vol. 1, 2, (London, 1850).

(١٠٥) مؤنس، المصدر السابق، ص ٣٦٩ .

(106)Hoskins, op. cit. p.170

(١٠٧) لمزيد من الاطلاع راجع الرحلة:

V. Fontainer, Voyag dons le Inde et dons le Golf por Egypt et le mev Rouge, 3 Tomes, (Paris, 1844).

(١٠٨) لونكريك، المصدر السابق، ص ٣٦١ .

(١٠٩) ب. م. دانتسيغ، الرحالة الروس في الشرق الأوسط، ترجمة معروف خزنه دار، (بغداد، ١٩٨١م)، ص ص٢٣٩-٢٤٠ .

(١١٠) جون س. كيست، الحياة بين الكرد، تاريخ الإيزيدين ، ترجمة عماد مجيد مزوري، ط١، (دهوك، ٢٠٠٥م)، ص ص٢٢٣-٢٢٤ .

(١١١) راجع مثلا: نيبور، المصدر السابق، ص٨٦؛ خليل علي مراد، "التنافس الدولي على نفط ولاية الموصل قبل الحرب العالمية الأولى"، مجلة أوراق موصلية، س٣، ع٤، الموصل، ٢٠٠٣، ص١٩؛ وللمزيد راجع: الرويعي، "تطور مفهوم الشرق في الفكر الأوربي من خلال كتابات الرحالة الأوربيين"، ص ص١٤-١٥.

(١١٢) للمزيد عن الدور الالماني راجع:

Sykes Christopher, Wassmuss The GGerman Lawrence First Pub, (London, 1936).

(114)Edward Mead Earle, Turkey The Great Powers and Baghdad Railway, (New York, 1924),p.15.

(١١٥) للمزيد راجع: نوري عبد البخيت، "رويا ومشروع سكة حديد بغداد"، مجلة المؤرخ العربي، ع١٥، بغداد، ١٩٨٠م، ص٤٩ .

(١١٦) راجع مقدمة المترجم والمؤلف في: كافن يونغ، العودة إلى الأهوار، ترجمة حسن الجنابي، دار المدى للثقافة والنشر، (دمشق، ١٩٩٨م)، ص ص٧-١٠ .

(١١٧) للمزيد، انظر: خليل علي مراد، "تجارة الموصل"، موسوعة الموصل الحضارية، مج ٤، (الموصل، ١٩٩٢م)، ص ص٢٧٣-٢٧٤ .

(١١٨) إبراهيم، المصدر السابق، ص ص٥٤-٥٥ .

(١١٩) للمزيد ، راجع مثلا: أ. ج. سوانس كوبر، رحلة في البلاد العربية الخاضعة للأتراك، ترجمة صادق عبد الركابي، ط١، (عمان، ٢٠٠٤م)، ص ص١٠٤-١٠٥؛ راوولف، المصدر السابق، ص٢٠٩؛ اوبنهايم، المصدر السابق، ص١٨٧؛ لجان، المصدر السابق، ص٥٨؛ الميجر سون، رحلة متنكر إلى بلاد مابين النهرين وكردستان، ترجمة فؤاد جميل، ط١، (بغداد، ١٩٧٠م)، ص٩٠ .

(١٢٠) حبي، المصدر السابق، ص ٢٣٣ .

(١٢١) عيسى، المصدر السابق، ص ص٥٥-٥٦ .

(١٢٢) للمزيد، راجع: وليم مارسدن، رحلات ماركو بولو، ترجمة عبد العزيز جاويد، ج٢، (مصر، ١٩٩٦م) .

(١٢٣) للمزيد عن هذه الصناعة، انظر: لانزا، المصدر السابق، ص ص١٥-١٥ .

(١٢٤) ساراكينوس مصطلح استخدام من قبل الأوروبيين للدلالة على العرب في العصور الوسطى، ثم اطلق على كل الذين يدينون بالإسلام في الشرق الأدنى بصفة عامة الاسم يأتي من كلمة ساراكينوس (باليونانية: Σαρακηνός) ثم أنتقل إلى اللاتينية ساراسينوس (باللاتينية:Saracenus) ومنها إلى اللغات الرومانسية، والكلمة بالإنجليزية هي (ساراسين Saracen) ، ويرجح أن أصل الكلمة اشتقت من الكلمة العربية (شرقيين) لوصف العرب المشارقة، وبعضهم أشار إلى أن المقصود به هم ساكني الخيام ...، وللمزيد عن هذا المصطلح راجع:

H. M. Gwating and J. P. Whitney (Edited), The Cambridge Medieval History, V. II The Rise of The Saracen and The of The Western Empire, The Macmillan Company, (New York,

1913), p.p.375-377; Bayard Taylor, Lands of the Saracen or Pictures of Palestine, Asia Minor Sicily and Spain, G. P. Putnam, (New York, 1859); H. C. Hollway – Calthrop, Paladin & Saracen Stories from Ariosto, Macmillan & Co. (London, 1882).

(١٢٥) حبي، المصدر السابق، ص ص ٢٥٦-٢٥٧؛ وللمزيد عما كتبه ماركو بولو عن مدينة الموصل والأكراد، انظر: مارسدن، المصدر السابق، ج١، ص ص ٥٦-٥٧.

(١٢٦) للمزيد، انظر: عيسى، المصدر السابق .

(١٢٧) لونكريك، المصدر السابق، ص ٣٥٧ .

(١٢٨) زكي صالح، بريطانيا والعراق حتى عام ١٩٤١م، دراسة في التاريخ الدولي والتوسع الاستعماري، ط١، (بغداد، د.ت)، ص ص٤١-٤٢ .

(١٢٩) للمزيد عنه وعن رحلاته، راجع:

William F. Sinclair (translated & annotated) and Donald Ferguson (edited), Pedro Teixeira, with his King of Harmuz and Extracts from his Kings of Persia, Hedford Press, London, p. XXV.

(١٣٠) خليل علي مراد، "تاريخ العراق الإداري والاقتصادي في العهد العثماني ١٠٤٨-١١٦٤هـ/ ١٦٣٨-١٧٥٠م"، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، (جامعة بغداد، ١٩٧٥م)، ص٣١٥ .

(١٢٧) للمزيد عن هذه الحملة، انظر: زينوفون، حملة العشرة ألاف الحملة على فارس، ترجمة يعقوب افرام منصور، (لموصل، ١٩٨٥م) .

(١٣١) مؤرخ يوناني ومن أشهر المؤرخين القدماء، جيء به أسيرا إلى روما سنة ١٦٨ق. م، وسرعان ما كسب عطف وصداقة القائد الروماني تسيبيو، إذ رافقه في العديد من غزواته، أما أشهر مؤلفاته فهو كتابه الذي يتكون من ٤٠ جزءا، ويتحدث عن فتوحات روما وسيطرتها على العالم، رونالد سترومبرج، تاريخ الفكر الأوربي الحديث ١٦٠١-١٩٧٧م، ترجمة احمد الشيباني، ط٣، (القاهرة، ١٩٩٤م)، ص٦٩٦ .

(١٣٢) للمزيد، راجع: شرف، المصدر السابق، ص ص٢٨-٣٠؛

www.AL-nour .com

(١٣٣) سيد احمد علي الناصري (ترجمة وتعليق وتقديم)، مذكرات رحالة عن المصريين وعاداتهم وتقاليدهم في الربع الأخير من القرن الثامن عشر من خلال وصف الرحالة جون انتيس (١٧٧٠-١٧٨٢م)، المجلس الأعلى للثقافة، (القاهرة، ١٩٩٧م)، ص١٠ .

(١٣٤) نورس، المصدر السابق، ص ١٤ .

(١٣٥) حبي، المصدر السابق، ص ٢٦٧؛ وللمزيد عنه راجع رحلاته في جزأين:

Pietro Della Valle, The Travels of Pietro Della Valle in India, from the Old English Translation of 1664, Edited by Edward Grey& G. Havers, Cambridge University Press, (London, 1892).

(١٣٦) راجع هذه الطبعة في:

Pietro della Valle, The Travels of Sige noble Roman into East-India and Arabia Desert, George Havers(Translation), Printed by J. Macock for John Place, (London, 1665) .

(١٣٧) وللمزيد، راجع: حبي، المصدر السابق، ص ص٢٦٥-٢٧٠؛ نورس، المصدر السابق، ص ١٤

Della Valle, op. cit. p.p365-372.

(١٣٨) فلاح حسن عبد الحسين، " مدينة البصرة كما وصفها الرحالة الأوربيون في العصر الحديث "، موسوعة البصرة الحضارية، (بغداد، ١٩٨٩م)، ص ٣١٦ .

(١٣٩) بطرس حداد، "مقتطفات من رحلة ثيفنو إلى العراق (القرن السابع عشر)"، مجلة بين النهرين، س٢، ع ٨، الموصل، ١٩٧٤، ص ص٢٨٧-٢٩١ .

(١٤٠) تافرنيه، العراق في القرن السابع عشر كما رآه الرحالة الفرنسي تافرنيه، ترجمة وتعليق بشير فرنسيس و كوركيس عواد، (بغداد، ١٩٤٤م)، ص ص١٠٠-١٠١ .

(١٤١) كيوم لجان، "رحلة لجان الى العراق ١٨٦٦م"، ترجمة بطرس حداد ، مجلة المورد، ع٣، مج١٢، ١٩٨٣م، ص٥٧.

(١٤٢) للمزيد عن هذه الرحلة راجع: مجموعة رحلات مترجمة، رحالة أوربيون في العراق، ط١، (بيروت، ٢٠٠٧م)، ص١٩١.

(١٤٣) بكنغهام، المصدر السابق، ص ص٣-٤ .

Abstract

Travels enjoy significance in historical studies, for they augmented there studies; this fact is given in various periodicals. The researcher found it important to study the travels and their backgrounds in addition to the results they realized, and the analyses and conclusions attempted in a detailed way. Also, the study has not included a list of all travels to Iraq, for these are extensive and it is hard to make this. Instead, a classification of the travels in made, a classification which depended on certain factors and bases. The chronology is taken into consideration in addition to the effect of these travels on Iraqi society.